الفصل السابع

تشادرلز رايت ميلز : الاتجاه النقدى المبكر

مقدمة : حول التكوين الفكرى لرايت ميلز

كتب جون ركس عن رايت ميلز يقول « لم يحاول ميلز أن يقدم تعريفا محددا لعلم الاجتماع . فقد راى — مثله مثل كونت وماركس وماكس فيبر من قبله — أن من واجبه ان يعيش ظروف عصره . وما يزال علم الاجتماع يحتاج الى رجل مثله . كما لم ينجح علم الاجتماع في بريطانيا فى انتاج واحد يسير على منواله . (١) ولايكشف هذا النص عن اهمية كتابات رايت لأنها تصور ظروف المجتمع الذى عاش فيه ، فتلك حقيقة اعترف بها ميلز نفسه . ولكن اهمية النص ترجع الى انه يكشف عن موقع رايت بين منظرى وباحثى علم الاجتماع . فهو هنا يتساوى مع اكثر رواد هذا العلم اصالة وتفكيرا ، وأعنى ماكس فيبر وماركس . وعلى اى حال فانه اذا كان القرن التاسع عشر قد انجب ماركس وفيبر ، فان القرن العشرين لم ينجب سوى ميلز . ذلك لسبب بسيط هو ان الذى يقبل آراء ماركس او فيبر لابد أن يقبل آراء ميلز ، لأن ذلك الأخير وان كان قد نقد اساتذته القدامى الا انه لم يتخل قط عن روحهم واسلوبهم فى التفكير وتناول قضايا مجتمعهم .

ولقد رأينا فى الفصل السابق التغيرات التى اجتاحت المجتمعات الغربية فى الخمسينات والستينات والتى وصلت الى اشدها فى حركة التمرد الواسعة النطاق من جانب الطلبة والشباب عام ١٩٦٨ ، ورأينا ايضا ما انتجته هذه التغيرات — التى ارتبطت بمثالب النظام الرأسمالى — من تفكير نقدى ساهم

---

(١) Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 184

مع الصراعات البنائية نفسها فى وضع النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية أمام مأزق حرج . ولقد خلصت فى الفصل السابق الى حقيقة اساسية اعيد تأكيدها مؤداها أن التناقضات البنائية التى ميزت المجتمعات الغربية فى العقدين السابقين قد وضعت الأساس لظهور اتجاهات نقدية راديكالية تعارض بشدة النظرية السوسيولوجية الكلاسيكية وما ارتبط بها من بحوث امبيريقية ، على اختلاف درجة المعارضة ودرجة الاقتراب أو الابتعاد عن النظرية الكلاسيكية . ولقد كان رايت ميلز بحق أول المعارضين أو النقاد واكثرهم راديكالية والتزاما بدراسة وتفسير ما يدور حوله من أحداث . ويدعونى ذلك الى القول بأن رايت ميلز كان الأب المؤسس للاتجاه النقدى فى علم الاجتماع ، سواء على مستوى النقد السوسيولوجى أوالنقدالاجتماعى فقد جمع بينهما بذكاء نادر بحيث لا نستطيع فى الكثير من الأحيان ان نضع خطوطا ببينهما فى نظرياته . وربما كان هذا هو السبب فى أننى آثرت أن أعقد هذا الفصل المستقل عنه لاعتقادى أن نظرياته من التميز والوضوح بحيث تمثل اتجاها نقديا مستقلا فى علم الاجتماع الحديث ».

وعند البدء بدراسة هذا التيار النقدى المبكر الذى تزعمه رايت ميلز تطفر الى الذهن حقيقتان على جانب كبير من الأهمية :

الأول : مقدار المعارضة والرفض الذى لقيه ميلز نفسه لمعارضته ورفضه لتيار المؤسسة الأكاديمية لعلم الاجتماع الأمريكى ،ذلك التيار المرتبط بمشكلة النظام فى المجتمع . فقد تسلط على هذه المؤسسة تيار غير نقدى وظهر فيها العديد من الاتجاهات والمدارس تنطلق من أساس واحد وتشترك معا فى أوجه شبه جوهرية (٢) . ومن الطبيعى أن يقابل أى اتجاه معارض لهذه

---

(٢) يحصر سعد الدين ابراهيم هذه الاتجاهات فى أربعة اتجاهات اساسية : البارسونزية والوضعية المحدثة ، والمدرسة الوظيفية ، ثم التفاعلية الرمزية ، أنظر : سعد الدين ابراهيم : علم الاجتماع الأمريكى بين التواطؤ والثورة ، **مرجع سابق** . =

الاتجاهات بمحاربة شديدة . وهذا بالضبط هو ما حدث لرايت ميلز . فقد كان اتجاهه النقدى شيئا غريبا وشاذا وسط هذا التيار غير النقدى المرتبط بمشكلة النظام . لدرجة انه لقب هو وزملاؤه بالأقلية المزعجة .

والثانية : ان الروافد الفكرية التى شرب منها ميلز وتغذى على تراثها تختلف بالقطع عن الروافد التى تأثر بهـــا الكلاسيكيون من زعماء المؤسسة الأكاديمية فى علم الاجتماع . فالى جانب تأثره بالتناقضات البنائية والفكرية فى المجتمعات الرأسمالية والتى كشف عنها الفصل السابق بجلاء ، الى جانب ذلك تأثر ميلز بمجموعة من التيارات الفكرية ساهمت فى تكوينه العقـــلى والنفسى الى حد كبير ، وبالتالى انعكس تأثيرها فى نظرياته وأفكاره . ونستطيع أن نحصر العوامل التى أثرت على ميلز فى تأثيرات خمسة رئيسية هى :

١ ــ التراث الفلسفى للبراجماتية التى اهتم بها فى رسالته للدكتوراه بعنوان : « علم الاجتماع والبراجماتية » (٢) والقول بأن ميلز قد تأثر بالبراجماتية لا يعنى أنه اتخذها مدخلا للعلم، وانما يعنى انه استوعب التراث الفلسفى الأمريكى . وقد كان لاستيعاب هذا التراث أثر فى رفضه للنزعـــة الأمبيريقية الاحصائية السائدة بين زملائه ، وفى ادراكه لتعقد العلاقة بين الفاعل الفردى والبناء الاجتماعى . « .. لقد كانت تلك الفلسفة

= والمحقق أن وجه الشبه المقصود هنا هو ارتباط هذه الاتجاهات بالنظام القائم وعدم تجاوزه أو التناقض معه .

(٢) كتب رايت ميلز رسالته عن الدكتوراه عام ١٩٤٢ م والتى قدمها لجامعة وسكنسن Wisconsin بعنوان « التفسير السوسيولوجى للبراجماتية » وقد قام هوروتز Horowitz بنشرها عام ١٩٦٤ بعنوان « علم الاجتماع والبراجماتية انظر :

W. Mills, Sociology and Pragmatism, The Higher Learning in America, (edited and with an Introduction by I. Horowitz), New York, Pain-Whitman, 1964.

بالنسبة له أسلوب حياة ، وخطة عمل كما كانت تصور العصر العلمى الذى يحيا فيه ، والحياة العملية التى يعيشها مواطنوه .. فهى فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا ، وهي ثمرة التفاعل بين الأفكار التى حملها المفكرون الأوربيون الى الولايات المتحدة ، وبين البيئة الجديدة التى نشأوا فيها » (٤) . هذا فضلا عن أن استيعابه للتراث البراجماتى جعله قادرا على تمثل الفكر الأوربى فى التاريخ والعلوم الاجتماعية عندما اتصل به بعد ذلك .

٢ ـ الدراسات الامبيريقية عن الحراك الاجتماعى والاتصال الجماهيرى . فقد قام ميلز بدراسات عن النقابة التجارية ، وصفوة رجال الأعمال ، الى جانب دراسات عن جماعات مختلفة تنتمى الى الطبقة الوسطى . وأجرى دراسات ايضا فى تأثير وسائل الاتصال الجماهيرى وقادة الرأى . وقد اجرى كل هذه الدراسات وهو فى كولومبيا حيث كان يعمل مع بول لازرسيفيلد منذ عام ١٩٤٥ م . ولا نستطيع أن ننكر تأثير لازرسيفيلد عليه فى كل هذه الدراسات وأن كان تاريخ ميلز العلمى السابق على كولومبيا ، ودراساته المكثفة فيما بعد تكشف عن أن كل هذه الدراسات والتقارير هى التى مهدت الطريق الى دراسة ميلز المكثفة والمطولة عن « صفوة القوة » ودراسته الأخرى عن « ذوى الياقات البيضاء » فقبل ان يذهب الى كولومبيا قام بكتابة تقارير مكثفة عن دراسات لويد وارنر عن « اليانكى مستى » كما كتب تقارير عن كتاب « بيرنهام Burnham» « الثورة الادارية » وغيرهما (٥) . ويدل ذلك على اهتمام مبكر فى حياته بالبناء الاجتماعى الأمريكى وخبرة بطريقة

---

(٤) عبد الباسط محمد حسن ، تشارلز رايت ميلز وفلسفة البحث فى علم الاجتماع ، **مقال بمجلة عالم الفكر** ، العدد الثانى ، يوليو ، ١٩٧٥ ، ص ٥٨٥ .

(٥) كتب رايت ميلز طوال حياته حوالى ٥٩ تقريرا عن كتب ودراسات . كما نشر نحو ٨٥ مقالا ودراسة ، نصفها تقريبا قبل عام ١٩٤٥ م أنظر قائمة ببليو جرافية مفصلة بأعمال ميلز فى المصدر التالى :

واقعية اثرت تأثيرا كبيرا على اخراج دراساته فيما بعد ، وعلى قدرته على ان يكتشف القوة القادرة على تغيير المجتمع او تثبيته .

٣ — ولكن قبل ان يبدأ ميلز كل هذه الدراسات قابل ميلز : العلماء الالمان اللاجئين من حكم النـــازى(٦) . ولقد كان اللاجئون ذوى اتجـــاهات راديكالية نقدية موجهة اساسا لتغيير نشأة النازية . وكانوا يعتقدون ان علم الاجتماع القادر على القيام بهذه المهمة هو مزيج لأعمال فيبر وماركس وفرويد . ولقد كان ميلز قد ألم بتراث ثلاثتهم على « هانز جيرث » فى جامعة وسكنسن.وقد اثار هؤلاءالنازحون فى ميلز الاهتمامات الراديكالية خاصة وانهم وجهوا جانبا من رؤيتهم الراديكالية الى المجتمع الأمريكى . فقد نظروا الى المجتمع الأمريكى الجماهيرى على أنه يتحول نحو الشمولية والفاشية ، وتخوفوا من ازدياد تأثير البانتجون الأمريكى لئـــلا يزكى النزعة العسكرية ويكرر ما حدث فى المانيا . واذا عرفنا أن ميلز قد أولى اهتماما للصفوة العسكرية وما تلعبه مع عناصر مركب الصفوة الأخرى فى السيطرة على المجتمع الأمريكى ، أدركنا مدى تأثر رايت ميلز بجماعة المهاجرين هؤلاء ، الى جانب أن آراءه تكشف عن مزج بين آراء ماركس ماكس فيبر وفرويد خاصة ما جاء منها فى كتابه « الشخصية والبنـــاء الاجتماعى الذى اشترك فيه مع هانزجيرث .

٤ — مواجهة ميلز ومعايشته للحرب الباردة والنزاع الأيديولوجى بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى . فأغلب المسائل التى

Mills, **Power, Politics and People,** The Collected Essays of C.W. Mills, edited by L. Horowitz, Oxford University Press, London, Oxford, 1970.

(٦) من هؤلاء فرانز نيومان Franz Newman وتيودور ادرنو T. Adorno وماكس هوركهايمر M. Horkhiemer وقد قام هؤلاء العلماء بانشـــاء معهد البحوث الاجتماعية بجامعة كولومبيا مما ساعد على التعمق فى دراسة منـــاهج البحث وطرق التحليل الاحصـــائى . انظر مقـــال عبد الباسط حسن السابق الاشارة اليه ، ص ص ٥٨٦ — ٥٨٧ .

عالجها ميلز تمس من بعيد أو قريب مسائل الحرب والسلام . فقد كان يعتبر أن الحرب من المشكلات التى تتسبب فى الكثير من الاضطرابات الشخصية . وأصدر ميلز كتابا فى عام ١٩٥٨ م بعنوان « أسباب الحرب العالمية الثالثة (٧) . ربط فيه بين أسباب احتمال قيام حرب عالمية ثالثة وبين تركز القوة فى المجتمع الأمريكى بأيدى جماعة صغيرة لا يمارس عليها الشعب أى رقابة . ومن هنا نستطيع أن نجد علاقات وثيقة بين ما جاء فى هذا الكتاب وما جاء فى كتب ميلز الأخرى التى عالج فيها مسألة تركز القوة فى المجتمع الرأسمالى .

٥ — الجو الأكاديمى الذى نشأ فيه ميلز . لقد لاحظ أن زملاءه كلهم ينصرفون الى تصميم نسق نظرى مجرد أو اجراء دراسات أمبيريقية ضيقة النطاق دون أى اهتمام بالمسائل ذات الطابع العالمى التى تواجههم ، أو اهتمام بمشكلات البناء الاجتماعى الذى يعيشون فيه . وطبيعى أن يدفع ذلك « الجبن الأكاديمى » ميلز — الذى أثرت فيه كل العوامل السابقة — الى أن يسبح ضد تيار كل من النظرية المجردة ذات الطابع المحافظ من ناحية ، وضد تيار النزعة الأمبيريقية المحدودة النطاق من ناحية أخرى ، وأن يتحدى الفكر الكلاسيكى المرتبط بالنظام العام بغض النظر عما جلبه عليه ذلك من مشكلات شخصية بدءا من اعتباره مجرد صحفى وحتى اتهامه بأنه منتسب الى الشيوعية فى الخفاء .

ويمكن أن نقسم هذه التأثيرات الى نوعين ساهم كل نوع فى تكوين عنصر معين من تفكير ميلز : النوع الأول : تأثيرات فكرية، وتنحصر فى تأثره بالفلسفة البرجماتية وبفكر ماركس وفرويد وماكس فيبر الذى أثار الاهتمام به جماعة اللاجئين الألمان . والنوع الثانى تأثيرات مجتمعية ، أو تأثره بواقع المجتمع نفسه . ويضم هذا النوع من التأثيرات خبرته بالواقع الاجتماعى من خلال بحوثه

---

(٧) W. Mills, The Causes of the Third World War, Simon and Schuster, New York, 1958.

الامبريقية المبكرة وتأثره بالحرب الباردة ، والتناقضات الفكرية والبنائية الآخذة فى الظهور فى المجتمع الرأسمالى . ولقد ساهم كل نوع من هذين النوعين فى خلق جانب من ثورة ميلز أو اتجاهه النقدى . ساهم النوع الأول فى أن يثور على النظرية الكلاسيكية نفسها ، وأسلوب العلماء فى تناول الموضوعات ، وتصويرهم لدور العلم فى المجتمع . أنها ثورة فكرية اكاديمية ، أو ضرب من ضروب الراديكالية العلمية اذا شئنا تسمية اخرى . وساهم النوع الثانى فى أن يثور على واقع مجتمعه بأن يوضح ما يعانى منه من امراض ومشكلات ، وان يحلل بناءه الاجتماعى تحليلا يكشف عما فيه من صور حديثة للاستغلال والسيطرة والنفوذ . أنها ثورة اجتماعية ، أو ضرب من ضروب النقد الاجتماعى . وقد نوهت فيما سبق الى أن تميز تراث رايت ميلز يرجع الى قدرته الفائقة على الجمع بين ضربين من ضروب النقد : النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى .

ولقد ترك ميلز أعمالا كثيرة تضم كتبا ومقالات ودراسات مونوجرافية وتقارير صحفية لا يستطيع مثل هذا الفصل الصغير أن يجمعها كلها (٨) . وقد تغلبت على هذه المشكلة بتناول مجموعة من الموضوعات التى يمكن أن تبرز لنا فى النهاية تيارى النقد اللذين ذكرتهما فيما سبق ، وان تلقى مزيدا من الضوء على طريقة ميلز فى الربط بينهما ، معتمدا فى ذلك على اهم كتبه وبعض ما كتب عنه . فلنتناول هذه الموضوعات ، ولنكشف من خلالها عن جانبى النقد عند ميلز .

اولا : الخيال السوسيولوجى الواعد :

رغم أن ميلز لم يتحدث عن « الخيال السوسيولوجى » الا فى كتابه قبل الأخير الصادر بهذا الاسم عام ١٩٥٩ . ورغم ذلك الا أن اى حديث عن ميلز

---

(٨) حصر هوروتز أعمال ميلز والكتب والدراسات التى كتبت عنه فى قائمة ببليوجرافية من ٢٧ (سبعة وعشرين صفحة من ص ٤١٤ — ص ٤٤١) فى الكتاب الذى حرره هوروتز وجمع فيه كل مقالات ميلز السابق الاشارة اليه .

كناقد سوسيولوجى أو اجتماعى لابد أن يتخذ من فكرة « الخيال السوسيولوجى » نقطة انطلاق . ذلك لأنها — وان كانت آخر الأفكار التى عالجها ميلز — كانت الاطار النظرى والمنهجى الذى كان يوجهه فى كل دراساته السابقة ، فضلا عن أننا نستطيع من خلال « الخيال السوسيولوجى » أن نضع أيدينا بسهولة على ارتباط جانبى النقد عند رايت ميلز . ولايمكن تناول نظرية الخيال السوسيولوجى الا اذا عرضنا للأنقاض التى قامت عليها . فقد صاغها فى مواجهة ضربين من ضروب النشاط السوسيولوجى كانا يسيطران على المؤسسة الأكاديمية الأمريكية ، واعنى التفكير العقلى المجرد ، والنزعة الأمبيريقية المجتزاة . وكان لابد أن يتخذ منها موقفا .

رفض ميلز ما اسماه بالنظريات الكبرى Grand theoris خاصة نظريات عالم الاجتماع الأمريكى تالكوت بارسونز . وقد شن ميلز هجوما عنيفا على بارسونز لدرجة أنه كان يترجم لغة بارسونز الى الانجليزية سخرية منه على التعقيد النظرى واللغوى لما هو سهل وواضح . ونستطيع أن نعثر على عنصرين من ثورة ميلز على النظرية الكبرى أو الاتجاه العقلى المجرد .

العنصر الأول : يتمثل فى رفض لأسلوب صياغة مثل هذه النظريات لقد كتب ميلز يقول « اعتقد أن المرء يستطيع أن يترجم كتاب «النسق الاجتماعى » المكون من ٥٥٥ صفحة الى حوالى ١٥٠ صفحة من اللغة السهلة الواضحة . غير أن النتيجة سوف لا تكون مؤثرة فسوف تتضمن الترجمة نفس المصطلحات التى قدمت بها المشكلة الرئيسية فى الكتاب ، والحلول التى طرحت لهذه المشكلة » (١٩) . ويعبر هذا النص على أن ميلز يرفض ذلك الأسلوب الغامض الذى صاغ به بارسونز نظريته الكبرى أو الذى يرتفع الى مستوى من التجريد يبعده عن الواقع الاجتماعى . ومع هذا الغموض النظرى ، ومع الابتعاد عن الواقع ، ومع الالتفاف حول نموذج التوازن والميكانيزمات التى تعمل على تدعيمه واعنى التنشئة الاجتماعية والضبط

---

(٩) W. Mills, Sociological Imagination, Oxford Uni. Press, 1959, p. 31.

الاجتماعى ، تعجز هذه النظرية الكبرى عن أن تفسر التغير الاجتماعى والبنا التاريخى برمته . فالسبب الرئيسى فى وجود النظرية الكبرى يكمن فى اختيار مستوى من التفكير من العمومية بحيث لا يستطيع اصحابه أن ينزلوا الى مستوى المشاهدة . انهم لا يتركون اطلاقا تعميماتهم ليلمسوا المشكلات فى اطرها التاريخية والبنائية . « ويؤدى غياب الاحساس الأصيل بالمشكلات الحقيقية الى أن نقرأ فى صفحاتهم اللاواقع . وتكون النتيجة مزيدا من التعسف الواضح ، ومن الاستفاضة اللانهائية فى التصنيفات ، التى لا توسع من فهمنا ولا تجعل خبرتنا أكثر شفافية » (١٠) . واذا كان هذا النص يكشف عن نقد لمستوى التجريد النظرى فى النظريات الكبرى ذلك التجريد الذى يعمى اصحاب هذه النظرية عن الارتباط بالواقع المعاش وما به من مشكلات فان نصا آخر يمكن أن يكشف عن نقد التعقيد اللفوى الذى يساهم بدوره فى الابتعاد عن الواقع . يذهب ميلز الى أن اصحاب النظريات الكبرى « قد انشغلوا بالمعانى التركيبية Syntatic ولم يكن خيالهم خصبا فيما يتعلق بالاشارات اللفظية ، فقد ارتبطوا بمستويات التجريد العليا الى درجة أن الانماط typologies التى اقاموها — والعمل الذى قاموا به من أجل اقامتها — تبدو فى الغالب وكأنها مبارأة جافة من المفاهيم أكثر من كونها جهدا لتحديد المشكلات موضع الدراسة بطريقة منظمة ، وتوجيه جهودنا لحل هذه المشكلات » (١١) . ويؤدى كل من الابتعاد عن الواقع والانخراط فى تركيبات المفاهيم الى اهمال الكثير من الخصائص البنائية للمجتمع الانسانى ، وهى خصائص تلعب دورا أساسيا فى فهم هذا المجتمع وهذا هو العنصر الأول فى نقد ميلز للنظرية الكبرى .

اما العنصر الثانى فى ثورة ميلز على النظرية الكبرى فينحصر فى ثورته على الارتباط الأيديولوجى لهذه النظريات . فهذه النظريات ليس لها من هذه

---

(١٠) Ibid., p.33

(١١) Ibid., p. 34

الا تبرير شرعية النظام العام القائم . يتضح ذلك فى طريقة تناول علماء النظريات الكبرى للمجتمع على أنه بناء متكامل يلعب فيه التوجيه المعيـــارى دورا كبيرا . فعلم الاجتماع كما يراه تالكوت بارسونز يدرس ذلك الجانب من نظرية الانساق الاجتماعية الذى يهتم بظواهر التشكل النظامى لانماط التوجيه القيمى فى النسق الاجتماعى وبشروط هذا التشكل النظامى، وبالتغيرات فى هذه الانماط والتوافق معها أو الانحراف عنها ، والعمليات الواقعية فى ارتباطها بكل هذه الأشياء (١٢) ويتفق ميلز مع دافيد لوكود فى أن هذه الصياغة تنزع من عالم الاجتماع أى اهتمام بالقوة ، ويضيف الى ذلك أنها تهتم فقط بعناصر الشرعية الأمر الذى يؤدى الى نقل كل الابنية النظامية الى المستوى الأخلاقى أو الرمزى . وحاول ميلز أن يثبت أن ما يحدث على مستوى المجتمع هو شىء أكثر من « البناء المعيارى » الذى ركز عليه بارسونز ويتضح ذلك بجلاء فى تناوله لموضوع القوة حيث أوضح أن القوة تلعب دورا كبيرا فى المجتمع الحديث وهى لاتقتصر على وسائل صنع القرارات والتحكم فيها فقط، بل تمتد الى التحكم فيما يجمع عليه الأفراد والسيطرة عليهم. ولا توضح لنا النظرية العامة الأبنية التى تظهر فيها هذه السيطرة (البناء الاقتصادى ــ البناء السياسى ــ البناء العسكرى) . على العكس من ذلك تماما تدعونا فكرة النظام المعيارى التى ترتكز عليها النظرية العامة الى أن نفترض أن القوة شرعية بالضرورة ، وأن هناك ضربا من ضروب التناغم بين المصالح . ويؤدى ذلك فى النهاية الى استبعاد للصراع ولامكانية دراسة التغير الاجتماعى أو التعامل مع التاريخ(١٣) .

وقد اعتبر ميلز أن السبب الرئيسى لهذا الارتباط الأيديولوجى هو الارتباط بمشكلة النظام العام فى المجتمع بالشكل الذى قدمه توماس هوبز ، حيث أصبحت المشكلة مشكلة تكامل بالدرجة الأولى . ولكن ما موقف ميلز

---

(١٢) Ibid., p. 35

(١٣) Ibid., pp. 40—42

من هذه المشكلة ؟ لاشك أن موقفه ينحصر فى رفض هذه المشكلة كمشكلة وحيدة للعلوم الاجتماعية، فليس هناك اجابة محددة للسؤال الآتى : ما الذى يحقق الاستقرار فى البناء الاجتماعى What holds Social Structure together ؟ وذلك لأن الأبنية الاجتماعية تختلف اختلافا جذريا فى درجة ترابطها ونوعية هذا الترابط . حقيقة اننا نكتشف بعض ضروب التكامل داخل البناء الاجتماعى كما يتضح فى الأنظمة السياسية والقرابية والعسكرية والاقتصادية ، ولكن لا يمكن أن نفصلها عن التطور التاريخى لهذا البناء ، ومن هنا فان نظرية البناء الاجتماعى لايمكن أن تنفصل عن نظرية التاريخ . وسوف لا توجد اى صعوبة أمام العلماء الاجتماعيين فى فهم كل من البناء الاجتماعى والتاريخى بطريقة واحدة (١٤) . وفى هذه الحالة لا تصبح مشكلة النظام العام هى المشكلة العامة الوحيدة ولكن تصبح مشكلة التغير مشكلة عامة اخرى . الأولى تعكس دراسة البناء الاجتماعى والثانية تعكس دراسة التاريخ فى ارتباطه بهذا البناء .

اذا كان هذا هو موقف ميلز من النظريات الكبرى المجردة ، فما هو موقفه من الاتجاه الأمبيريقى؟ رفض ميلز هذا الاتجاه كما رفض النظرية الكبرى . لقد رسم ميلز هذا الاتجاه بأنه اتجاه تجزيئى Abstracted من حيث أنه يدرس ظواهر منفصلة دون ربطها بنظرية معينة ودون التعمق فى أصولها التاريخية . وهو بذلك ينزع الظواهر من سياقها البنائى والتاريخى . فالاتجاه الأمبيريقى المجتزىء « .. لا يتميز بقضايا أو نظريات جوهرية ولا يقدم على اى فهم لطبيعة المجتمع او الانسان او لأى حقائق معينة عنهما . ويمكن التعرف على هذا الاتجاه بحق من خلال المشكلات التى يختارها انصاره للدراسة ومن خلال أسلوبهم فى تناول هذه المشكلات » (١٥) .

---

(١٤) Ibid., pp. 44—47

(١٥) Ibid., p. 55

يكتشف هذا النص عن جانب من نقد ميـــلز لهـــذا الاتجـــاه ، واعنى كونة اتجاها يخلو من اية قضايا او نظريات لها قوة التوجيه ، مما افقده الرؤية الواضحة والفهم الجيد لطبيعة الانسان والمجتمع.وربما كان السبب فى ذلك هو محاولة انصار هذا الاتجاه محاكاة منهج العلوم الطبيعية الأمر الذى جعلهم يهتمون بالمناهج على حساب فهم الواقع فهما حقيقيا . وفى هذه الحالة يصبح المنهج هو الذى يتحكم فى صياغة النظرية وليس الواقع نفسه . « فالنظرية تصبح مجموعة من التغيرات المستخدمة فى تفسير النتائج الاحصـــائية .. وتقتصر البيانات الامبيريقية على الحقائق التى يمكن تحديدها احصائيا ، وعلى العلاقة المقابلة للعد ، والتكرار ، والقياس (١٦) .

لذلك كان من الطبيعى أن يهمل هذا الاتجاه الدراسة التاريخية والمقارنة مثله فى ذلك مثل الاتجاه النظرى الخالص . فهم (الامبيريقيون) يرفضون الاتجاه التاريخى والمقارن ، ويعالجون مجالات محدودة وهم بذلك يقتربون من « النزعة السيكولوجية المفرطة » Psychologism وهم لا يستفيدون بالأفكار الاساسية عن البناء الاجتماعى التاريخى سواء فى تحديد مشكلات دراستهم او فى تفسير نتائجهم ذات المنظور الضيق . ومن هنا كانت مطالبة رايت ميلز بتوسيع النظرة الامبيريقية لتشمل الأبنية التاريخية والمقارنة .

اذا كان هذا هو نقد ميلز للاتجاه النظرى المجرد والاتجاه الامبيريقى المجتزىء فما هو البديل لتفادى أوجه القصور التى وقع فيها كل منهما ؟ لم يقدم ميلز بديلا نظريا متكاملا ، كما انه لم ينخرط فى الدراسات الامبيريقية بنفس طريقة الاتجاه الامبيريقى التى نقدها . اذا كانت نقطة الضعف التى اشترك فيها كلا الاتجاهين هى اهمال دراسة البناء الاجتماعى دراسة تبرز عوامل التغير داخله ، فمن الطبيعى ان يهتم ميلز بدراسة البناء الاجتماعى وأن يكشف عن العوامل التاريخية التى اثرت وتؤثر فيه ، مع الانتقال فى الدراسة من مستوى البناء الى مستوى الشخصية . وجاءت معظم دراسات ميلز دراسات امبيريقية تاريخية تقدم فهما حقيقيا للبناء الاجتماعى فى المجتمع

---

(١٦) Ibid, p. 6 6

الأمريكى . ولكن هذه الدراسات لم تكن تجرى من فراغ على ما ذكرت آنفا ، وانما كان يقودها موقف نظرى منهجى يحدد اتجاهه الأيديولوجى ودرجة التزامه بالأهداف التى يجب أن يسعى اليها عالم الاجتماع (١٧) . وتمثل فكرة الخيال السوسيولوجى أحد الأدوات النظرية والتحليلية التى تشكل هذا الموقف النظرى . وهى — على ما ذكرت فيما سبق — تكشف لنا عن وجهى النقد عند رايت ميلز ، وأعنى النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، وهى الأداة التى يجب أن يتوسل بها الباحث فى نقده لأساليب السيطرة والتحكم التى تضرب بجذورها فى كل عناصر البناء الاجتماعى .

تقوم فكرة الخيال السوسيولوجى على الربط بين مستويين من مستويات التحليل : مستوى المجتمع أو البناء الاجتماعى ومستوى الفرد ، وذلك انطلاقا من مسلمة اساسية مؤداها أن حياة الفرد أو تاريخ المجتمع لايمكن فهم أى منهما دون فهم الآخر والعلاقة التى تربط بينهما . فاذا كان الأفراد لايملكون القدرة على فهم العلاقة بين الانسان والمجتمع، أو بين تاريخ الانسان وتاريخ المجتمع ، أو بين الذات والعالم المحيط بها ، فانهم بحاجة الى مجموعة من المهارات العقلية تمكنهم من تكوين فكرة جلية لما يدور حولهم وما سوف يحدث لهم تأثرا بهذا العالم . هذه القدرة العقلية هى ما أطلق عليها رايت ميلز « الخيال السوسيولوجى » . وهى قدرة ليست مطلوبة من الباحثين فى علم الاجتماع فقط ، وانما يجب أن يمتلكها الصحفيون والدارسون والفنانون ، وحتى عامة الناس . (١٨)

يقول ميلز « يمكن الخيال السوسيولوجى مالكه من فهم الاطار التاريخى

---

(١٧) سوف أهتم هنا بسرد هذا الاطار النظرى ، فهو لايمثل اطارا متكاملا ، لأن رايت ميلز اهتم أساسا بكشف عناصر البناء الاجتماعى الأمريكى من خلال الدراسات الأمبيريقية والتاريخية : وهذا الاطار النظرى يمثل عند ميلز بعض الأدوات التحليلية وتطوير لبعض المفاهيم الماركسية ، وتحديد لبعض الأهداف الملزمة لعالم الاجتماع ، وهى موضوعات سوف تكشف عنها بجلاء الفقرات القادمة من هذا الفصل .

(١٨) Ibid., p. 5

الأوسع فى ضوء معناه بالنسبة للحيـــاة الداخلية والعمل الخـــارجى لعدد مختلف من الأفراد . انه يمكنه من أن يفسر كيف يصبح لدى الأفراد فى غمرة حياتهم اليومية المضطربة وعيا زائفا بأوضاعهم الاجتماعية .. ومن خلاله يستطيع أن يرجع مظاهر القلق الشخصى الى مجموعة من الاضطرابات الفردية (الهموم الفردية) Personal troubles وأن يربط بين اللامبالاة التى تعيشها الجماهير وبين المشاكل العامة » (١٩) ويكشف هذا النص عن مستويات التحليل التى يتيحها الخيال السوسيولوجى ، كما يكشف عن الهـــدف الأساسى هذا الخيـــال . فهناك مستويان للتحليل يتيحهما هذا الخيال : المستوى الأول هو مستوى الفرد فكل ما يعانيه من اضطرابات تفرضها عليه حياته فى مجتمع مستقل والمستوى الثانى هو مستوى المجتمع او البناء الاجتماعى لكل ما يزخر به هذا البناء من مشاكل عامة Public issues وقدرة البـــاحث تتجلى فى الربط بين مظـــاهر الاضطراب الشخصى وبين مشاكل البناء الاجتماعى. وهنا يظهر الهدف الأساسى للخيال السوسيولوجى، والذى ينحصر فى اكساب الأفراد وعيا حقيقيا بمشكلات مجتمعهم يجعلهم قادرين على ربط مشكلاتهم الخاصة بمشكلات المجتمع العامة . وهنا تكمن القدرة الواعدة للخيال السوسيولوجى .

ولكن ما هى المشكلات الخاصة الرئيسية السائدة فى هذا العصر ، وما هى المشكلات العامة المرتبطة بها؟ للاجابة على هذا السؤال من منظور ميلز يجب أن نعرف كلا من المشكلات الخاصة والمشكلة العامة . عندما يشعر الفرد ان مجموعة القيم التى يعتنقها مهددة بالزوال فانه يخبر قدرا من الاضطراب او ما يسمى بالمشكلة الخاصة ، أما عندما تشعر الجماهير كلها بأن قيمها مهددة فانهم فى هذه الحالة يصبحون أمام مشكلة عامة. وغالبا ماتتضمن المشكلة العامة أزمة فى المستويات النظامية، أو تتضمن مايطلق عليه الماركسون «التناقضات» او مظاهر العـــداوة (٢٠) Antogonisms . وبناء على هذين التعريفين اعتبر

---

(١٩) Ibid., p. 5

(٢٠) Ibid., pp. 8—9

ميلز أن أهم مشكلات عصرنا هى مشكلات القلق uneasiness واللامبالاة indifference التى تنتشر فى الوسط الشخصى . أما أهم المشكلات العامة فانها ترتبط بالقوى غير الحقيقية التى تتحكم فى مجتمعنا المعاصر ، مع ما يصاحب هذه القوى من طرق انتاج تذكى الاغتراب وما يلازمها من اساليب للسيطرة السياسية والفوضى النظامية(٢١) .

ولابد أن يكون الخيال السوسيولوجى قاسما مشتركا عاما فى الحياة الثقافية فى هذا العصر . فلم تعد الفيزياء — بعد توصلها الى القنبلة الهيدروجينية ودخولها الى حلبة الصراع الأيديولوجى — لم تعد هى القاسم المشترك بين العلوم . فلسنا بحاجة الى المزيد من التقدم العلمى ، بقدر ما نحن بحاجة الى أن نميط اللثام عن عناصر القلق واللامبالاة التى يسببها النظام القائم بكل ما فيه من عناصر التحكم والسيطرة . وهذه مهمة فكرية وسياسية يجب أن تناط بالباحث المتخصص فى العلوم الاجتماعية وهى مهمة يلقيها على عاتق الباحث السوسيولوجى كل زملائه المتخصصين فى فروع المعرفة الاخرى : علماء الطبيعة ، والفنانون ، والمجتمع الثقافى برمته . ويستطيع الباحث السوسيولوجى ان ينجز هذه المهمة من خلال تبنيه الخيال السوسيولوجى فهو « الخيال السوسيولوجى يعد بفهم عمق لواقعنا الخاص فى ارتباطه بالواقع الاجتماعى الأعم » (٢٢) .

من هذا العرض المختصر لقدرة الخيال السوسيولوجى على فهم الواقع الاجتماعى يتضح لنا ثلاثة حقائق على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : قدرة الخيال السوسيولوجى الواعدة كاداة نظرية ومنهجية . وتتمثل هذه القدرة فى تفادى نقاط الضعف التى وقع فيها كل من المنظرين ذوى الميول التجريدية والأمبيريقيين ذوى الميول الاحصائية الخالية من اى مضمون حقيقى . ومن ثم القدرة على الدراسة التاريخية للواقع الاجتماعى وتصعيد التحليل السوسيولوجى عبر مستويات مختلفة فردية واجتماعية داخل البناء الاجتماعى، الأمر الذى يؤدى الى الكشف عما ينتجه هذا البناء من مشكلات

---

(٢١) Ibird., pp. 11–13

(٢٢) Ibid., p. 15

عامة تؤدى بدورها الى مشكلات واضطرابات على مستوى الفرد .

الثانية : راديكاليـــة مفهوم الخيـــال السـوسيولوجى نفســه ، وهى راديكالية تكشف عن راديكالية سواء فى مستواها السوسيولوجى أو الاجتمـــاعى وهو يثور على النظرية الـكبرى وعلى النزعة الامبيريقية . فلا يمكن أن نبدأ بأى منهما . واذا كان ميلز قـد ركز على البناء التاريخى للمجتمع وعلى ما تكشف عنـه مظاهـر سلوك الافراد ، فليس ذلك اننا يمكن أن نبـدأ الدراسة من اى منهما ، على العكس من ذلك يجب أن نحدد العلاقات بينهما فنكشف عن تأثير البناء الاجتماعى على السلوك الفردى أو تأثير السـلوك الفردى على البناء الاجتماعى . وينقلنا ذلك الى ثنائيـة اخرى بين المشكلات العامة والمشكلات الخاصة . والى جانب هذه الراديكالية السوسيولوجية يكشف لنا مفهوم الخيـال السوسيولوجى عن راديكالية اجتماعية ، فهو يحدد للباحث أسلوبا فى دراسة الواقع الاجتماعى ونقده .

الثالثة : امتداد التفكير النظرى لرايت ميلز من اعماله الاولى وحتى اعماله الاخير ، فاذا كان كتاب « الخيال السوسيولوجى » هو كتابه قبل الاخير ، فانه يعد امتدادا لما أثاره فى احدى دراساته النظرية المبكرة التى اشترك فيها مع هانز جيرث ، واعنى كتاب « الشخصية والبناء الاجتماعى » (٢٣) فقد حـــاولا المزج بين نظريات فرويد وماركس ، وكتبا فى تصدير كتابهما يقولان « لا شك أنه حينما نستعرض مجال علم النفس الاجتماعى تتكون لدينا فكرة مؤداها أن كل الاعمـــال المعـــاصرة تتوافق مع تراثين أساسيين : تراث فرويد عن بنـــاء الشخصية من ناحية وتراث ماركس عن البناء الاجتمـــاعى(٢٤) .

---

(٢٣) Hans Gerth and W. Mills, Character and Social Structure, The Psychology of Social Institutions, Harcourt, Brace and Company, New York, 1953.

(٢٤) نقلا عن المصدر التالى :
J. Rex, Disco,ering Sociology, op. cit., p. 183.

ويعلق جون ركس على هذا النص بقوله « لقد اتضح من خلال كتابهما ما يقصدانه بقولهما هذا ، اتضح انه لابد أن يكون لعلم الاجتماع نظرية ملائمة للعلاقة بين الشخصية والمجتمع . وتعتبر التفسيرات الفرويدية نقطة انطلاق ملائمة مع توسيع فكرة فرويد التنشئة الاجتماعية لتشمل نظام القرابة ليتضح كيف ينشأ الانسان على الطرز النظامية القيادية التى ناقشها ميلز فى كتاب « صفوة القوة » والتى يمكن أن تثرى دراستها أفكار ماركس وماكس فيبر » ومن النصين يتضح أن معالجة ميلز وجيرث للعلاقة بين البناء الاجتماعى والشخصية لم تنطلق من منظور بارسونزى على ما يذهب بعض الباحثين(٢٥) . حقيقة أن ميلز وجيرث قد اهتما بكيفية تشكيل البناء الاجتماعى لشخصية أفراده ، ولكن ليس من نفس منظور بارسونز ، والا لما كنا بحاجة الى ان نضفى على آراء ميلز هذا الطابع الراديكالى . فما هو وجه الخلاف اذن ؟

الواقع أن ميلز وجيرث عندما ربطا بين الشخصية والبناء الاجتماعى قد حاولا الاستفادة قدر الامكان من الثراء الذى يمكن أن تقدمه الرؤية التاريخية متأثرين فى ذلك بماركس . فعندما درسا مفهوم الدور اهتما بتغير دور الفرد عبر تاريخ حياته وفى نفس الفترة التاريخية ، ونظرا الى البناء الاجتماعى على انه بناء متحرك أو متغير دائما . هذا فضلا عن انهما فى تحليلهما للدور من المنطلق الفرويدى كانا يدركان رؤية فرويد الثاقبة للاضطرابات التى يمكن أن تحدث على مستوى الشخصية . وعند تحليلهما للبناء الاجتماعى

---

(٢٥) من هؤلاء سعيد فرح الذى يذهب فى مقال عن « نظرة فى مدى اثراء علم النفس للنظرية الاجتماعية » ان جيرث وميلز قد اقتفيا أثر بارسونز عندما ذهبا الى أن الأبنية الاجتماعية تشكل شخصيات أفرادها . انظر : محمد سعيد فرح ، « نظرة فى مدى اثراء علم النفس للنظرية الاجتماعية » ، مقال فى كتاب « دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا السابق الاشارة اليه ، ص ص ٨٧ — ٨٨ .

فى علاقته بالشخصية كانا يدركان رؤية ماركس للدور المسيطر الذى يمكن ان يلعبه البناء الاجتماعى فى كبح حرية الفرد وثورته . ليس ادل على ذلك من انهما اعتبرا أن النظم الاساسية فى المجتمع هى النظم الاقتصادية والدينية والسياسية والعلمية.وقد عالج ميلز معظم هذه النظم فى كتبه الاخرى واوضح دورها فى خلق القلق واللامبالاة (الاغتراب بالمفهوم الماركسى) على المستوى الفردى . واكثر من هذا نستطيع أن نستخلص نقطة اخرى من النص السابق لجون ركس . فقد أوضح ركس أن احد أهداف كتاب ميلز وجيرث هو أن يوضح كيف ينشىء «المجتمع أفراده على عبادة النظم التى نوقشت فى كتاب» «صفوة القوة» ،ويعنى هذا أن اسلوب التحكم والسيطرة التى يمارسها النظام الرأسمالى تمتد الى التنشئة الاجتماعية حيث يتشرب الأفراد طابع هذه النظم ويتم تدريبهم على اساليبها . ويختلف هذا التناول لاسلوب التنشئة الاجتماعية اختلافا كبيرا عن تناول بارسونز الذى اعتبرها ميكانيزما اساسيا من ميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، بخلاف ميلز الذى يوحى حديثه عنها بضرورة تغيير اسلوب التنشئة الاجتماعية ليصبح محاولة لاكساب الفرد وعيا حقيقيا بالواقع الذى يعيش فيه.

واذا تأملنا اهم مجالات البحث فى علم الاجتماع كما حددها ميلز وجيرث لعثرنا على خيط آخر لتلك الصلة التى تربط هذا العمل بكل أعمال ميلز السابقة . حدد جيرث وميلز اربعة مجالات رئيسية للبحث ، يجب على العالم ان يختار منها موضوعات دراسته (٢٦) .

١ ــ الارتباط بين النظم السياسية والاقتصادية والعسكرية .
٢ ــ الجوانب السيكولوجية والبيروقراطية .
٣ ــ انكماش الليبرالية .
٤ ــ بناء الشخصية فى مجتمع الاستقطاب الأيديولوجى .

---

(٢٦) انظر :

Colin Fletcher, **Beneath the Surface** : An Account of three Styles of Sociological Research, Routledge and Kegan Paul, London and Boston, 1974, p. 176.

ومهما يكن من أمر فحسبنا هنا أن نؤكد ذلك الخيط الذى يربط بين المحاولة النظرية الاولى لرايت ميلز فى كتابه « الشخصية والبناء الاجتماعى » وكتابه الاخير عن « الخيال السوسيولوجى » . ولننتقل الآن الى مناقشة عنصر آخر من آراء ميلز يكشف لنا عن جانبى نظرية ميلز النقدية .

ثانيا — رايت ميلز اليسارى الجديد :

ذكرت آنفا أن ماركس كان أحد الذين أثروا تأثيرا بالغا فى أفكار رايت ميلز . ليس ادل على ذلك من أنه اتهم من جانب العلماء البرجوازيين بأنه ماركسى . والمحقق أن ميلز لم يكن ماركسيا تقليديا فقد ثار على الماركسية مثلما ثار على الوظيفية ، ربما لانها نظرية كبرى شاملة . غير أن ثورته هنا لم تكن ثورة رفض وانما كانت ثورة تطوير وتنقيح . فقبل روحها العامة ، ورفض بعض قضاياها ، وطور بعضها الآخر فى اطار هدفه الاساسى الذى أناط به نفسه ، واعنى نقد البناء الاجتماعى القائم ، وكشف مظاهر التحكم والاستغلال فيه . الأمر الذى يدعونى الى القول بأن ميلز يعتبر بحق ماركسيا محدثا ، أو احد مفكرى اليسار الجديد واكثرهم جدية وبراعة . ماذا رفض ميلز من الماركسية وماذا قبل وماذا طور ؟ الاجابة عن هذا السؤال هى موضوع هذه الفقرة .

يوحى أول فصل من كتاب رايت ميلز « الماركسيون » انه يرفض الماركسية رفضا ، حيث يدخل الماركسية فى حوار مع الليبرالية ويقرر أن الليبرالية والماركسية يعبران عن النزعة الانسانية العلمانية للحضارة الغربية .. ويجسدان مظاهر الثقة وما ارتبط بها من آمال ، مثلما يجسدان مظاهر الخوف والابهام فى العصر الحديث . وهما أكثر من كونهما فلسفتين اساسيتين : انهما واقع سياسى بالدرجة الاولى ، فهما يمثلان معتقدين ظاهرين لاكبر دولتين فى تاريخ العالم .. فضلا عن ذلك يقدم كل منهما نظرة واسعة النطاق فى طبيعة العالم الاجتماعى ، ترسم وسائل التغير

التاريخى ، وتقترح برامج لتحقيق هذا التغير(٢٧) » ويكشف هذا القص عن ثلاثة حقائق جوهرية : الاولى ان ميلز ينظر الى الماركسية نظرة بنائية حيث ظهرت — مثلها مثل الليبرالية — كرد فعل انسانى للحضارة الغربية وما وصلت اليه من تقدم بفضل الثورة الصناعية . والثانية : انه هنا يضع اساس تخوفه من حدة التعصب الايديولوجى الذى عالجه فى كتابه « اسباب الحرب العالمية الثالثة » ، حيث تحولت كل فلسفة سياسية الى ايديولوجية ، فاصبحت الماركسية عقيدة الشيوعيين ، واصبحت الليبرالية عقيدة الراسمالية . وكلتاهما داخل الحضارة الغربية (٢٨) . والثالثة : انه ينظر الى الماركسية — وكذلك الليبرالية — على انها تقدم نظرة مجردة وواسعة النطاق . والواقع ان النقطة الثانية هى اهم هذه النقاط جميعا ، فميلز يريد ان يدلل على ان تحول الفلسفة الاجتماعية الى ايديولوجية قد اساء الى الماركسية والليبرالية على حد سواء . ولكن هل معنى هذا انه يرفض الماركسية ؟

لم يرفضها كلها بطبيعة الحال . ولكى يتضح لنا ذلك لابد ان نفرق بين شيئين : بين رؤية ميلز للماركسية كفلسفة اجتماعية وبين رؤيته لها كايديولوجية سياسية . لقد رفضها بالصورة المطبقة بها فى روسيا ، وهذا هو السبب الذى جعله يدخلها فى حوار مع الليبرالية على اساس ان الاستقطاب المعاصر بينهما ياتى الى العالم بالشر اكثر من الخير . فبعد ان يوضح الصراع بين الايديولوجيتين من خلال وسائل الاعلام ، ودفع الشعوب دفعا الى قبول اى منهما يقول « ان تراث الليبرالية يقرر ان امريكا بلد حر يتحكم فيه الافراد فى مصيرهم الخاص . ويسود فى روسيا السوفيتية حكم

---

(٢٧) W. Mills, **The Marxists**, Penguin Books. First Published in U.S.A., 1962. Republished in Penguin Books in 1963, 1967, 1969, pp. 15—16

(٢٨) اعتبر ميلز ان الاتحاد السوفيتى يدخل فى نطاق الحضارة الغربية . انظر المرجع السابق ، ص ٢٤ .

شمولي فردى قائم على الطغيان المطلق يتم فيه ضبط سلوك الناس بالقوة حيث لا حرية ولا ابتهاج(٢٩) . » ويضيف : « .. فى نطاق تراث الشيوعية أصبحت أفكار ماركس واتباعه من المفكرين فى حالة تدعو الى الأسف(٣٠) » ويوضح النصان أن ثورة ميلز هنا هى ثورة على نظام الحكم السوفييتى ، وليست ثورة على الماركسية . فما دامت أفكار ماركس تدعو فى روسيا الى الاسف ، فمعنى ذلك ان النظام الروسى قد شوه هذه الافكار .

ولكن هل معنى هذا أن ميلز يدخل الماركسية فى حوار مع الليبرالية أنه يساوى بينهما ؟ الاجابة بالنفى بطبيعة الحال أيضا . انه يرفض الليبرالية قبل أن يغادر الفصل الأول من كتابه « الماركسيون » فقد تحولت الليبرالية الى نزعة محافظة منذ أن ارتبطت بالأيديولوجية ، فعندما تعرض ميلز للنزعة المحافظة فرق بين صورتين لها : صورتها المنتشرة فى البلدان النامية حيث يسود الاتجاه المحافظ من خلال قوة البوليس وليس من خلال الاتفاق الأيديولوجى ، والمثال على هذه الصورة اسبانيا فى عصر فرانكو ، والبرتغال فى عصر سالازار ، ثم صورتها المنتشرة بها فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة حيث تؤدى الليبرالية الوظائف الفكرية والأيديولوجية التى كان الاتجاه المحافظ يؤديها فى القرن التاسع عشر . أما الاتجاه المحافظ بنفس صورته القديمة هذه فلم يعد موجودا . ومنذ أن ارتبطت الليبرالية بالأيديولوجية الرأسمالية تخلت عن جوهرها الأساس ولم تعد ترتبط بأى نظرية منطقية عن المجتمع ، أو بأى وسائل مؤثرة للحركة الاجتماعية « فقد وصلت الليبرالية ــ كمجموعة من الأفكار ، او كمجموعة من القضايا عن المجتمع والتاريخ ــ وصلت الى حالة من الموت » (٣١)

---

(٢٩) Ibid., p. 23

(٣٠) Ibid., p. 24

(٣١) Ibid., p. 30

وتجدر الاشارة الى أن تخلى الليبراليين عن نظرياتهم يمثل نقطة تفرقة بينهما وبين الماركسية حيث ظل الفكر مرتبطا بالعمل الى يومنا هذا =

واذا كان هذا موقف ميلز من الليبرالية والذى صاغه بوضوح ، فما هو موقفه من الماركسية ؟ رأينا فيما سبق كيف أن ميلز أدان الصياغة الأيديولوجية للماركسية فى روسيا السوفيتية ، تماما كما ادان التحول اليبرالى نحو الاتجاه المحافظ فى الولايات المتحدة . ليس معنى ذلك أنه يرفض الماركسية ، فقد قبل روحها الراديكالية العامة وتفهم دورها فى تغيير الواقع ولكن ذلك لم يمنعه من تناولها بالنقد . واذا عرضنا موقف ميلز من قضايا الماركسية تتضح لنا هذه الحقيقة بجلاء . حصر ميلز قضايا الماركسية فى اربع عشرة قضية وعلق على كل قضية منها على النحو التالى(٣٢) :

١ ــ ذهب ماركس الى ان الأساس الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد بناءه الاجتماعى والتركيب السيكولوجى لأفراده ، وأن ديناميات التغير التاريخى تنحصر فى الصراع بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وأن الصراع الطبقى بين المالكين والعمال هو انعكاس اجتماعى وسياسى ونفسى للصراعات الاقتصادية . ويكشف نقد ميلز لهذه القضايا انه لا يقبلها ، فكيف يحدد الأساس الاقتصادى البناء الفوقى ، فضلا عن أن الأساس الاقتصادى نفسه يشتمل على عوامل ليست اقتصادية . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان الصراعات الاقتصادية لا تتحول الى صراعات سيكولوجية وسياسية الا تحت ظروف وميكانيزمات قد لا توجد فى كل المجتمعات .

٢ ــ تعد الملكية ــ فى نظر ماركس ــ كمصدر للدخل معيارا موضوعيا لقياس الطبقة ، وبناء على ذلك فان المجتمع الراسمالى يحوى طبقتين : الطبقة المالكة وطبقة العمال . ويذهب ميلز الى أن نموذج ماركس هنا يلغى كل اعتبارات المكانة ، ويحدد وضع الأفراد فى ضوء علاقتهم بوسائل

= ومع هذا يجب أن نشير أيضا الى أن الليبرالية ما كانت تتخلى عن نظرياتها لولا أن جندت كل علماء العلوم الاجتماعية لصياغة نظرية عن المجتمع .

(٣٢) Ibid., pp. 104—121

الانتاج فقط . حقيقة اننا لانستطيع الاستغناء عن الملكية كمعيار موضوعي لقياس التدرج فى المجتمع الراسمالى ، غير ان الملكية وحدها غير كافية ومضللة ، حتى فى فهم التدرج الإقتصادى . فاننا لانستطيع على سبيل المثال — ان نحدد مكانة افراد الطبقة الوسطى من « ذوى الياقات البيضاء » . فلا يمكن ان نضم هذه الفئة مع عمال الصناعة فى طبقة واحدة . وهنا يصبح الدخل معيارا آخر بجانب الملكية فى تحديد المستوى الطبقى .

٣ — يذهب ماركس الى أن الصراع الطبقى — وليس التناغم — يعد ظرفا حتميا وصحيحا فى المجتمع الراسمالى ويوافق ميلز على طرف القضية الاول ، ولكنه يرفض طرفها الثانى . فاذا كان التناغم بالمعنى الذى صاغه به علماء الاقتصاد الكلاسيكيون يعد خرافة فى المجتمع الراسمالى ، فانه لا يستتبع ذلك القول بأن الصراع الطبقى ظاهرة حتمية أو عادية. ان ذلك يغفل عملية التشكل النظامى المستمر للصراعات القائمة على مصالح اقتصادية . فمن الممكن أن يحول النضال الطبقى الى تنظيمات ادارية داخل المجتمع الراسمالى ، بنفس القدر الذى يحافظ به هذا المجتمع على استقراره ويخفى مظاهر القصور والخطأ والعبث داخله عن طريق وسائل سياسية وعسكرية ، واقتصادية .

٤ — يؤكد ماركس أن العمال لا يستطيعون أن يتخلصوا من حالة الاستغلال والمصير الثورى عن طريق كسب الحقوق والامتيازات السياسية والقانونية . وفى هذا الصدد فان النقابات العمالية واحزاب العمل الجماهيرية من الوسائل التدريبية المفيدة لقيام الثورة ، ولكنها ليست ضمانا لتحقيق الاشتراكية . ويعلق ميلز على هذه القضية بقوله « الحقيقة العامة تقرر أن العمال قد حصلوا على كل من حقوقهم الاقتصادية والسياسية ، ولم تعمل اى من النقابات العمالية أو أحزاب العمل الجماهيرية كوسائل تدريبية لقيام الثورة ، ذلك فضلا عن أن التنظيم النقابى لم يظهر الى الوجود الا فى فترة متأخرة ، واحتمى فى ظهوره تحت

مظلة الدولة القانونية والسياسية التى تسيطر عليها مصالح الطبقتين العليا والوسطى » (٣٣) ويكشف هذا النص عن رفض ميلز لقضية ماركس السابقة .

٥ ــ اذا كان ماركس يذهب الى أن الاستغلال كامن فى البناء الراسمالى كنسق اقتصادى ، ويزيد هذا الاستغلال من فرص قيام الثورة ، فان ميلز يوافق على طرف القضية الأول على انه حكم اخلاقى ، ولا يوافق على طرفها الثانى من حيث ان الاستغلال لم يزد من فرص البروليتاريا فى القيام بالثورة فى المجتمع الراسمالى .

٦ ــ كلما زاد الاستقطاب فى البناء الطبقى ، تزايدت فرص قيام الثورة . ويقرر ميلز تعليقا على هذه القضية أن الاستقطاب لم يظهر فى المجتمع الراسمالى ولم يحدث فى تاريخ المجتمع الراسمالى أن بسط البناء ــ كما توقع ماركس ــ فى طبقتين اثنتين . على العكس من ذلك تماما . فانه كلما تقدم المجتمع الراسمالى اصبح التدرج الاجتماعى اكثر تشعبا واختلافا .

٧ ــ وكلما تزايد البؤس المادى للعمال ازداد اغترابهم . ويعلق ميلز على هذه القضية بأن البؤس المادى أو الاقتصادى لم يتزايد داخل المجتمعات الراسمالية المتقدمة ، بل ان هناك ــ على العكس من ذلك ــ زيادة فى مستوى المعيشة المادية . وارجع ميلز هذه الزيادة فى مستويات المعيشة الى اربعة عوامل :

(أ) الاصلاحات النظامية ذات الطابع السياسى مثل برامج الرفاهية التى تقدمها الدولة ، وظهور دولة الرفاهية التى تواجه مظاهر النقص فى النظام الراسمالى .

---

(٣٣) Ibid., pp. 107 108

(ب) الأدوار السياسية والاقتصادية التى تلعبها نقابات العمال والأحزاب العمالية فى المجتمع الرأسمالى .

(جـ) اقتصاد الحرب وما يترتب عليه من زيادة مستمرة فى مستوى المعيشة بسبب :

(د) كل الميكانيزمات السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية التى يقوم عليها استقرار المجتمع الرأسمالى .

ولكن ميلز يقبل الطرف الآخر من القضية والمتعلق بالحرمان النفسى او الاغتراب عند العمال بحيث لايرتبط بالضرورة بالاستغلال الاقتصادى ، حيث ظهرت انماط وميكانيزمات جديدة للاستغلال ذات طابع نفسى : التحكم الآلى فى اساليب الترفيه وسلب القدرة على التفكير على سبيل المثال . وهى ميكانيزمات توجد فى المجتمع الرأسمالى ، وما بعد الرأسمالى ، وفى المجتمعات المتخلفة . ورغم ذلك فان مفهوم الاغتراب بالمعنى الذى قدمه به ماركس ما يزال خصبا ومتألقا وله قدرة على التفسير ، ولذلك فانه اكثر اتفاقا من مفهوم البؤس المادى .

٨ ــ يذهب ماركس الى أن العمال الاجراء كطبقة فى ذاتها سوف يتحولون الى بروليتاريا ، اى الى طبقة لذاتها . بمعنى انهم سوف يتحولون من جمع متفرق من الأفراد الى طبقة تعى وضعها فى البناء الاقتصادى القائم . ويعلق ميلز بأن هذا التحول يظهر فقط بطريقة جزئية ومرحلية . انه يظهر فى مرحلة مبكرة من التصنيع ويتبلور فى موقف يتحد فيه القهر السياسى مع الاستغلال الاقتصادى . واذا كان ماركس لم يوضح الشروط التى يظهر من خلالها الوعى الطبقى ، فانه من المحقق انها تشتمل على عناصر أبعد من التطورات الاقتصادية .

٩ ــ ويؤكد ماركس على ان فرصة قيام الثورة توجد عندما ترتبط الشروط الموضوعية بالاستعداد الذاتى فقط . ويعلق ميلز بأن كلتا العمليتين لم ترتبط سويا فى أى مجتمع رأسمالى متقدم ، وحتى فى أكثر هذه المجتمعات تقدما فى أثناء أزمته الكبرى ، ويعنى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠ .

١٠ ــ أن الضرورة الوظيفية للطبقة فى النسق الاقتصادى تؤدى الى تعاليها من الناحية السياسية فى المجتمع ككل . وتكشف هذه القضية عن رأى ماركس فى القوة ، التى تحوزها طبقة من الطبقات فى فترة زمنية معينة ثم تنتقل الى طبقة اخرى بحيث تؤدى كل طبقة دورا وظيفيا فى العملية التاريخية . ويعلق ميلز على هذه القضية بأن هذه النظرة الى القوة تبدو شكلية بحيث تفقد قدرتها على الاسترشادية فى البحث ، فضلا عن كونها مضللة فى الغالب وهى تطمس الترابط التنظيمى بين الطبقات والنظم السياسية ، وكذلك دور الأفكار السياسية والقوة العسكرية فى التحكم فى مصادر القوة واستخدامها .

١١ ــ تعد الدولة فى كل المجتمعات الطبقية الأداة القهرية للطبقات الحاكمة على مايذهب ماركس . ويكشف تعليق ميلز على هذه القضية عن قبوله لها بشرط ارتباطها بفترة زمنية معينة . ويناقش ميلز هنا مفهوم ماركس عن « الطبقة الحاكمة » ويعده مفهوما غير دقيق ، ويطرح بديلا له يتمثل فى مفهوم « صفوة القوة » . ويذهب الى أن هذا المفهوم اكثر استيعابا للعناصر المتشابكة فى الدوائر العليا فى المجتمع الراسمالى .

١٢ ــ يمر النظام الراسمالى بأزمة اقتصادية تلو الأخرى ، وتزيد هذه الأزمات حالة المجتمع سوء . ومن ثم تتحرك الراسمالية الى أزمتها النهائية التى تمهد لقيام ثورة البروليتاريا . ويكشف تعليق ميلز على هذه القضية عن ان أزمة الراسمالية كما يتصورها ماركس أزمة مرحلية ، فالتطورات التى طرأت على المجتمع الراسمالى حولت مشكلة الأزمة من مشكلة اقتصادية الى مشكلة ذات طابع سياسى وعسكرى وثقافى . اى أن الاستغلال فى المجتمع الراسمالى ــ والذى يخلق أزمة داخل هذا المجتمع ــ قد اتخذ أشكالا جديدة تختلف عن اشكاله الاقتصادية التى ركز عليها ماركس .

١٣ ــ أما عن قضية تحول مجتمع ما بعد الراسمالية الى مجتمع ديكتاتورية البروليتاريا الذى يتحول بدوره الى مجتمع شيوعى ، فان ميلز يقرر اننا

لانملك اى معرفة بذلك لأنه لم يحدث ان قامت ثورة بروليتارية فى اى جزء من أجزاء العالم بالمعنى الذى كان يقصده ماركس .

١٤ ــ يذهب ماركس الى انه بالرغم من أن الأفراد يصنعون تاريخهم الخاص، فان الطريقة التى يتكون بها هذا التاريخ ومســـاره يتحدد من خلال الظروف الاقتصادية ، اى أن طابع الاستغلال الاقتصادى والتحكم فى الطبقات الفقيرة هو الذى يحدد مسار التاريخ . فبالرغم من أن الأفراد أنفسهم هم الذين يصنعون هذا التاريخ ، الا انهم يصنعونه وفق أهواء الآخرين . ويعلق ميلز على هذه القضـــية فيذهب الى ان الحقائق التاريخية تؤكد الحاجة الى نموذج آخر ، ومن هذه الحقائق تركز وسائل القوة فى كل عنصر نظامى من المجتمع سواء أكان سياسيا أم اقتصاديا أم عسكريا . بناء على ذلك يجب ان نشيد نموذجا آخر يمكن من خلاله أن نفهم الأحداث فى علاقتها الوثيقة بعملية صنع القرار لدى صفوة القوة ، وبحيث ينطبق هذا النموذج على النمط السوفيتى وعلى المجتمعات المتخلفة على حد سواء مثلما ينطبق على المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. ومع هذا النقد لايخفى ميلز اعجابه بنموذج ماركس على أنه نموذج « صاغة ماركس بطريقة متألقة لينطبق على مرحلة تاريخية معينة فى مجتمع معين » (٣٤) .

١٥ ــ مادام الاساس الاقتصادى للمجتمع يحدد البناء الاجتماعى ، فانه يترتب على ذلك أن يتحدد تاريخ هذا البناء من خلال التغيرات التى تطرأ على الأساس الاقتصادى . ويعلق ميلز بأن الكثير من التطورات الاقتصادية فى القرن العشرين يجب ان تفسر فى ضوء التغيرات فى القوى السياسية والعسكرية ولا يود ميلز هنا أن يستبدل الحتمية الاقتصادية بأخرى

---

(٣٤) Ibid., p. 121

سياسية وعسكرية ، ولكنه يود أن يؤكد أن ترابط هذه الأنماط جميعا لا يخضع لأى قاعدة تاريخية عامة .

من ذلك الاستعراض السريع لموقف ميلز من القضايا الأساسية للماركسية يتضح أن موقفه لا يمثل موقف الرفض بقدر ما يمثل فهما جديدا للماركسية برؤية عصرية لها فلا يمكن لناقد اجتماعى راديكالى مثل ميلز أن يرفض الماركسية رفضا باتا ، خاصة وأن معظم المؤرخين لحركة النقد الاجتماعى يقرون أن عالم الاجتماع الناقد الاجتماعى يستوعب علم الاجتماع متشربا بالماركسية (٣٥) . فلو تأملنا نقد ميلز للقضايا السابقة نجد أنه يقوم على فكرة جوهرية مؤداها أن المجتمع الراسمالى المعاصر يختلف اختلافا جذريا عن المجتمع الراسمالى الذى كتب عنه ماركس ، وأن هذا المجتمع قد طرات عليه بعض التغيرات النظامية أدت فى النهاية الى :

(أ) عدم امكان تحقيق بعض الأفكار الماركسية خاصة فيما يتعلق بالصراع الطبقى وتحقيق المجتمع الشيوعى .

(ب) ان اشكال الاستغلال لم تعد مقصورة على الشكل الاقتصادى الذى تصوره ماركس وانما امتدت وتشعبت جذورها واصبحت ترتبط بالبناء النظامى للمجتمع ككل . بمعنى أن الاستغلال لم يعد مقصورا على طبقة الملاك ، وانما أنتج السلوك الراسمالى شرائح أخرى ارتبطت مصالحها بمصالح الملاك واصبحت تمارس اشكالا جديدة من الاستغلال . ليس أهمها جميعا الاستغلال الاقتصادى ، بل الاستغلال النفسى وسلب حرية الفكر والارادة بطريقة غير مباشرة ومن خلال وسائل منظمة .

---

(٣٥) انظر على سبيل المثال :

T.B. Bottomre, Critics of Spciety, op. cit., Last Chapter;
C. Fecher, Beneath the Surface, op. cit., p. 190

(جـ) أن الفئات المستغلة — بناء على ما وجد داخل المجتمع من متغيرات جديدة — لم تعد تنحصر فى طبقة العمال فى مقابل أصحاب الأعمال، بل أصبحت تضم فئات جديدة أهمها وأكبرها على الاطلاق الطبقة الوسطى من (ذوى الياقات البيضاء) والتى لايمكن أن نضعها مع مع طبقة العمال فى شريحة واحدة .

(د) بناء على ذلك تصبح بعض المقولات الماركسية — وعلى راسها مفهوم الاستقطاب الطبقى — غير صالحة لتحليل بناء المجتمع أو مايسود فيه من سيطرة واستغلال .

(هـ) اذا كان ماركس قد صاغ نموذجه من اجل تحليل بناء المجتمع الراسمالى فى فترة تاريخية معينة وفى مكان معين ، فان نقد ميلز لهذا النموذج يهدف الى امكانية الامتداد بالتحليل ليشمل نمطين من انماط المجتمع تتحكم فيهما نفس القوى والدوافع التى تتحكم فى المجتمع الراسمالى ، وأعنى النمط السوفييتى والنمط المتخلف .

نستطيع من ثم أن نذهب الى القول بأن ميلز كان ينظر الى ماركس على أنه مفكر عاش ظروف المجتمع الذى كتب عنه ، وظروف الفترة التاريخية التى تناولها بالتحليل ،وقدم اطارا نظريا عاما يجب التعديل فيه حسب مقتضيات التطور البنائى للمجتمع وحسب ظروف الفترة التاريخية . وقيمة هذا الاطار تكمن فى قدرته على التطور وفى اصالته التحليلية . لقد فرق ميلز بين الماركسية كنظرية عن المجتمع theory وبين الماركسية كنموذج تفسيرى Model (٣٦) وكتب يقول « فى ضوء هذه التفرقة فقط نستطيع أن نفهم لماذا يعد العمل الذى قدمه ماركس عظيما ، ولماذا يتضمن بعض مظاهر الخطا

---

(٣٦) النظرية من حيث هى قضايا يمكن أن تثبت صحتها أو زيفها ، والنموذج من حيث هو مجموعة مترابطة من العناصر يمكن استخدامها فى التفسير . وهذه العناصر ليست صادقة أو زائفة وانما ملائمة بدرجات مختلفة . انظر ميلز ، الماركسيون ، مرجع سابق ، ص٣٨

او الغموض ، ولماذا لايعد كافيا . فالماركسية كنموذج هى ما تعد عظيمة بحق . انه يقدم لنا اداة للتفكير بشأن الانسان ، والمجتمع والتاريخ » (٣٧) . ويكشف هذا النص عما سبق ان اكدته من أن ميلز قد تشرب الروح العامة للماركسية ، تلك الروح التى تكمن فى الماركسية كنموذج صاغه صاحبه فى ضوء ظروف تاريخية معينة ، ومن ثم فانه يشتمل على الصواب والخطأ والغموض ، ولكنه مع ذلك يبقى حيـــا ليلهم كل من يعيش ظروف عصره الحقيقية بأن يضيف عليه قبسا جديدا . فنموذج ماركس التفسيرى تمت صياغته لتفسير حقيقة تاريخية ، ومن ثم نستطيع أن نشتق منه مبـــدأ « الخصـــوصية التـــاريخيـــة » «Principle of Historical Specificity» الذى يمكن الاستفادة به على ثلاثة مستويات :

١ ــ كأساس للبحث يوجه الباحثين الى دراسة الانتظامات والاتجاهات التى تقابلهم فى ضوء فترة تاريخية معينة ، ويعلمهم بألا يعتبروا آراءهم عن هذه الفترة تعميمات مطلقة .

٢ ــ كمنهج لنقد المفاهيم بحيث لاننظر لأى مفهوم ــ أو اى مقولة ــ على انه ازلى ، على العكس من ذلك ننظر اليه على انه نسبى يرتبط بفترة معينة.

٣ ــ كنظرية عن طبيعة المجتمع والتاريخ ، حيث يقرر هذا المبدأ ان تاريخ البشرية ينقسم الى فترات ، وكل فترة تتحدد من خلال شكل بنائى معين.

لقد طبق ميلز نفسه هذا المبدأ وعاش فقط ظروف عصره ، واعتقد اعتقادا جازما أن هذا هو مافعله ماركس « ان كل انسان يستطيع ان يفكر فقط فى ضوء العصر الذى يعيش فيه ، ولكنه ايضا يستطيع أن يفكر فى الماضى والمستقبل فى محاولة لتوسيع تفسيره ، بحيث يشيد من خلال مادته صوره عن هذا العصر .وهذا هو مافعلهماركس بطريقةمتألقة» (٣٨) ويكفى لكى

---

(٣٧) Ibid., p. 38

(٣٨) Ibid., p. 103

اوكد على ما ذهبت اليه فى هذه الفترة من ان ميلز قد تشرب الروح الماركسية دون ان يعتنقها كمذهب سياسى فكرى ، أن هذا النص الذى كتبه ميلز عن ماركس يمكن ان ينطبق على ميلز ذاته .

يؤكد ذلك ما ذكره فى كتابه « الخيال السوسيولوجى » من ان الباحث فى العلوم الاجتماعية يجب أن يسعى نحو فهم التنوع البشرى بطريقة منظمة . وتعنى عبارة « التنوع البشرى » ان الانسان يعيش فى عوالم اجتماعية متنوعة تبدأ بأقل هذه العوالم بدائية ، وتنتهى بأكثرها تحضرا وتعقيدا ، ويترتب على هذا ان البناء الاجتماعى للمجتمع المعاصر له من السمات والخصائص مايجعله مختلفا ومتميزا عن الأبنية التى سبقته . وفهم هذا البناء وحل مشكلاته الملحة يتطلب ضربا معينا من ضروب التفكير لايقتصر على نوع معين من فروع المعرفة وانما يستقى مادته ، ومفاهيمه ، ومناهجه من بين اكثر من فرع من هذه الفروع . (٣٩) ويناط بالباحث أن يستخدم هذه المادة ، وتلك المفاهيم ، وهذه المناهج فى دراسة الفترة التاريخية التى يعيش فيها . فذروة اهتمام الباحث فى العلوم الاجتماعية بالتاريخ تنحصر فى الأفكار التى يستطيع أن يكونها عن الفترة التاريخية التى يعيش فيها . (٤٠)

ان ميلز هنا يتمثل روح ما يسمى باليسار الجديد ، والذى رصدنا حركة ظهوره فى الفصل السابق . ولقد كتب ميلز مقالا عن اليسار الجديد عارض فيه بشدة دعاة نهاية الأيديولوجية من المفكرين الليبراليين ، فما زلنا نعيش فى مجتمع تلعب فيه الأيديولوجيا ونظريات المجتمع ، واجهزة التغير التاريخى ، والمثل الانسانية والسياسية دورا كبيرا ويعنى اليسار فى نظر ميلز : « النقد البنائى لنظريات المجتمع الذى يركز بطريقة أو بأخرى على بعض المطالب والبرامج السياسية ، .. فلكى تصبح يساريا يجب أن تجمع

---

(٣٩) Mills, Sociological Imagination, op. cit., pp. 132–142

(٤٠) Ibid., p. 165

بين النقد الثقافي والنقد السياسي وبين المطالب والبرامج (٤١) ويكشف هذا النص عن ان اليسار الجديد يعمل على مستويين : مستوى النقد الأيديولوجيات السائدة ، ثم مستوى الفعل والعمل من اجل تغيير الواقع . وطبيعي ان يستلهم روح تغيير الواقع من التراث الماركسي . وينطبق ذلك على ميلز بطبيعة الحال . فقد استلهم الروح العامة للماركسية بعد ان نقدها ، وتآزر مع فكر اليسار الجديد من أجل تغيير الواقع الجديد للمجتمع الرأسمالي ..

ولكن ميلز اختلف مع بعض مفكري اليسار الجديد على الأداة التي من خلالها يمكن تغيير الواقع . فقد كان هناك بعض اليساريين لا يزالون يتعلقون بالطبقة العاملة بالمفهوم الماركسي على انها الأداة الفعالة للقيام بالثورة وعارضهم ميلز في ذلك عندما كتب يقول : « ان مالا افهمه عن بعض كتاب اليسار الجديد هو لماذا يتعلقون تعلقا شديدا بالطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة على انها الأداة التاريخية ، او اهم الأدوات جميعا في التصدي للواقع التاريخي المحلي الذي يختلف بالقطع عما يتوقع هؤلاء اليساريون . ان تلك المتافيزيقيا العمالية هي حجة من الماركسية في العهد الفيكتوري والتي تعتبر الآن غير واقعية تماما . (٤٢) فقد كان ميلز يعتقد ان العمال قد حققوا من المكاسب ومن التشكل النظامي داخل المجتمع الرأسمالي مايجعلهم غير قادرين على الثورة على هذا المجتمع . ومن هنا كان اهتمام ميلز بدور المثقفين كأداة فعالة في تغيير المجتمع ، فالمثقف المستقل والفنان المستقل يعدان من الشخصيات القليلة الباقية المستعدة لمقاومة ومحاربة تجميد وموت الأشياء الحية الخلاقة . فالادراك الخصب يتضمن الآن القدرة المستمرة

---

(٤١) Mills, «The New Left», in : C.W. Mills, **Power, Politics and People**, edited by Irving Louis Horowitz, pp. cit., p. 253

(٤٢) Ibid., p. 256

على كشف وتحطيم القوالب الجامدة فى الرؤية والتفكير التى تغمرنا بها وسائل الاتصال الحديثة . ان الفن الجماهيرى والتفكير الجماهيرى يجهزان على الاقبال على الممارسة السياسية وهذا هو السبب فى ضرورة تركز تضامن المثقفين وجهدهم فى الممارسة السياسية . فلو لم يربط الفكر نفسه بقيمة البحث عن الحقيقة فى النضال السياسى ، فانه لا يستطيع ان يلتحم بخبرة الحياة ككل (٤٢) . واذا كان رايت ميلز يلقى على عاتق المثقف هذه المسئولية فانه يلقى على عاتق عالم الاجتماع كمثقف مهمة رئيسية فى مجال دراسة المجتمع والسياسة سنكشف عنها فى الفقرة القادمة .

ثالثا ــ رايت ميلز العالم الملتزم :

فى هذه الفقرة التمس دليلا آخر على راديكالية رايت ميلز ، فأعرض لموقفه من دور الباحث فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة . والحق ان تصور ميلز لهذا الدور يعد تدعيما جديدا لجانبى الراديكالية فى تفكيره ، وأعنى الراديكالية السوسيولوجية والراديكالية الاجتماعية . فسوف نرى كيف يثور ميلز على الدور الكلاسيكى الذى يقوم به عالم الاجتماع ومن ثم الثورة على اهداف البحث والتنظير فى العلم ويكشف ذلك عن ضرب من النقد السوسيولوجى . وسوف نرى أيضا كيف يتصور ميلز دورا جديدا لعالم الاجتماع فى المجتمع الحديث يسعى اساسا الى نقد الواقع واماطة اللثام عما يتحكم فى بنائه من قوى ، وما يرتبط به من مشكلات ومثالب ، ويمثل اسلوبا من اساليب النقد الاجتماعى .

ما هو الدور المنوط بالعالم المتخصص فى العلوم الاجتماعية ؟ لاشك ان دور العالم يختلف باختلاف الاطار الاجتماعى والتاريخى المحيط به ، وباختلاف طبيعة الضغوط التى يفرضها هذا الاطار المحيط . فالعقل البشرى يمكن ان يوجه لخدمة أغراض متعددة ، ويمكن أن يقوم بأدوار متعددة ذات طبيعة

---

(٤٢) W. Mills, The Social Role of The Intellectual, in : Power, Politics and People, op. cit., p. 297.

وأهداف مختلفة ، ولقد حصر ميلز دور الباحث فى العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، وفى علم الاجتماع بصفة خاصة ، فى أدوار ثلاثة رئيسية مختلفة الأغراض والأهداف . (٤٤)

١ ــ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح فيلسوفا للحاكم . فمنذ أوجست كونت وحتى كارل مانهايم يستطيع المرء أن يجد محاولات مستميتة لتنظيم دور العقل . وعندما ينخرط هذا الباحث المنظر فى أمور السياسة ، أو يوجه نظرياته لخدمتها ، يصبح فيلسوفا للحاكم ، وتصبح جودة الممارسة السياسية مرتبطة الى حد كبير بكفاءة المفكرين المدافعين عنها .

٢ ــ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح مستشارا للحاكم او الدولة . وفى هذه الحالة تصبح العلوم الاجتماعية أداة رشيدة فى يد الدولة لاحكام الضبط والرقابة على الأفراد ، ويفقد الباحث حياده الأخلاقى ، ويوجه بحوثه من أجل تحديد الأدوات الإدارية وأساليب السيطرة أو التحريك الخفى manupilation للجماهير .

٣ ــ يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يصبح مستقلا من الحاكم ، وعن الدولة ، وأن يختار الأبحاث التى يعمل فيها بنفسه ، وكذلك المشكلات التى يتناولها بالدراسة ، وأن يخضع أولى القوة والجماهير للدراسة فى ذات الوقت . كل ذلك فى اطار من الالتزام .

رفض ميلز الدور الأول والثانى . فالأول يرتبط بالاتجاه العقلى أو النظرية الكبرى التى تعرض لها بالنقد ، والثانى يرتبط بالاتجاه الامبيريقى المجرد الذى نقده كما رأيناه فى سياق سابق . ولكن رفضه هنا لايعتمد على دحض النظرية الكبرى أو دحض الامبيريقية المجردة ، بقدر مايعتمد على الدور الذى يقوم به كل من هذين الاتجاهين فى خدمة النظام القائم والدفاع عنه .

---

(٤٤) W. Mills, Sociological Imagination, op. cit., pp. 179—181.

ان هؤلاء المنظرين والباحثين يرتبطون ارتبـــاطا وثيقا بصـــانعى القوة فى المجتمع ، ومن ثم تجىء نظرياتهم مثقلة بالأحكام القيمية . حقيقة أن كل نظرية سوسيولوجية وكل بحث سوسيولوجى يجب ان يكون له معنى سياسى، ويجب أن يرتبط بمجموعة من القيم ، ولكن عندما تكون هذه المعانى وتلك القيم مملاة من أعلى أو موجهة لخـــدمة قطاع دون الآخر فان وجودها غير ذات قيمة « نحسنا بحاجة الى هؤلاء العلماء الاجتماعيين الذين يسمحون للأحداث المحيطة ببحوثهم ان تشكل المعنى الســـياسى لهذه البحوث أو يسمحون للأفراد الآخرين بأن يحددوا أسلوب الاستفادة بهذه البحوث حسب أهوائهم » (٤٥) .

ليس معنى ذلك أن ميلز يسعى الى أن يصبح علم الاجتماع متحررا من القيم على ما ذهب ماكس فيبر . على العكس من ذلك تماما يرى ضرورة أن يكون الباحث ملتزما بمجموعة من القيم ، وليس هناك من سبيل لتفادى اختيارات القيمة والتأثر بها فى البحوث السوسيولوجية والمشكلة لا تتمثل فى الاختيار القيمى ، ولكنها تتمثل أساسا فى نوعية هذا الاختيار . فاذا ارتبطت قيم الباحث بالدفاع عن الوضع العام ووجهت نحو أغراض بيروقراطية وأيديولوجية ، فان ذلك يمثل انحرافا للعلم عن مساره الصحيح . وهذا هو الذى جعل ميلز يرفض دور الباحث كفيلسوف أو كمستشار للدولة لانه يلتزم بقيم يفرضها المجتمع الراسمالى بحيث يقل دور العقل الحر أو التفكير الليبرالى الحقيقى الذى ورثناه من عصر التنوير الى ان طوقته الحضارة الغربية بنظمها الأيديولوجية .

فلايمكن دراسة البناء الاجتماعى دراسة حقيقية دون رؤية شخصية تقوم على مجموعة من القيم يلتزم بها الباحث ، وأن التحرر الكامل من القيم يجعل عالم الاجتماع يتناسى أنه مواطن وجزء من المجتمع الذى يعيش فيه وينتمى اليـــه .

---

(٤٥) Ibid, p. 177

وبناء على رفض الدور الأول والدور الثانى لعالم الاجتماع ، يقبل ميلز الدور الثالث الذى يلزم الباحث بالاستقلال الفكرى عن القوى والضغط التى يفرضها البناء النظامى . وان يكون عالما ملتزما . ولكن التزامه من نوعية خاصة ، فهو ليس التزام المدافع عن ايديولوجية معينة ، او مصالح طبقة معينة . انه يلتزم بأنواع ثلاثة من القيم : قيمة البحث عن الحقيقة بكل دلالاتها السياسية ، وقيمة العقل ، وقيمة الحرية (٤٦) . فاذا كنا قد ورثنا هذه القيم من عصر التنوير ، فان الحضارة الغربية قد طمستها ، فهناك مجموعة من القوى غير الرشيدة وغير المنضبطة تحاول أن تتحكم فى الجماهير بطريقة رشيدة ، بحيث اختفى اى دور لقيمة العقل ، والحرية ،والبحث عن الحقيقة(٤٧) . واذا اراد الباحث ان يلتزم بقيم معينة فلابد له أن يلتزم بهذه القيم الثلاثة . فالتزامه بها يحقق له أولا التحرر من سيطرة أولى القوة والانقياد الأعمى وراء التحيز الأيديولوجى ، ويحقق له ثانيا أن ينفذ الدور المنوط به ، واعنى اخضاع هذه القوى المسيطرة نفسها للدراسة . « فالأمل فى العلوم الاجتماعية ينعقد على أن تظل قيمة الحرية وقيمة العقل قيمتان ، يسعى الباحثون الى تحقيقهما ، بمعنى أنهما سوف تستخدمان بطريقة جديدة ومتسقة ورحبة فى صياغة مشكلات الدراسة » (٤٨) . ولا يعنى اعلاء قيمة العقل والحرية التمكن من انجاز البحث بحرية تامة دونما اى اهداف . فما دام هذا الباحث الملتزم يحس بظلم الواقع ، فان بحوثه تتجه أساسا نحو فهم

---

(٤٦) Ibid., pp. 178—179

(٤٧) كان ميلز يردد دائما قول ماركس « يصنع الأفراد تاريخهم الخاص ، ولكنهم لايصنعونه حسبما يريدون ، فهم يصنعونه فى ظروف لايختارونها بأنفسهم » وينسحب هذا القول فى نظر ميلز على الحضارة الغربية التى يتحكم فى مصيرها صفوة صغيرة من الأفراد ، ويجبرون المفكرين والفنانين والوزراء والباحثين والعلماء على ان يخوضوا الحرب الباردة ، دون المطالبة بأى سياسة بديلة ، او حتى طرح هذا البديل على الجماهير . انظر رايت ميلز « الخيال السوسيولوجى » مرجع سابق ، ص ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٤٨) Ibid., p. 173

هذا الواقع فى محاولة لتغييره . وهو يلتزم بقيم العقل والحرية لكى يستطيع أن ينفصل ببحوثه عن صانعى القرارات التاريخية فى هذه القوة ، بحيث يصبح الباحث « سياسيا خارج السياسة » على حد تعبير ميلز . فالباحث فرد يعيش داخل مجتمعه ، والاختلاف بينه وبين الآخرين يتمثل فى الموقع الذى يحدده لنفسه داخل هذا المجتمع .

ومتى قبل الباحث قيم العقل والحرية والتزم بها فسوف يستطيع أن يقوم بالدور المنوط به على أكمل وجه . ولكن كيف السبيل الى ذلك الاجابة على هذا السؤال تفرض سؤالا آخر : ما هى الموضوعات التى يتناولها بالدراسة ؟ وكيفية هذا التناول ؟ من اهم الموضوعات الأساسية التى يتناولها الباحث الملتزم بالدراسة الفرص الموضوعية المتاحة لأنماط معينة من البشر داخل انماط معينة من البناء الاجتماعى ليصبحوا أفرادا أحرارا وعلى جانب من الرشد ، وما هى الفرص المتاحة امام افراد ذوى الأوضاع الاجتماعية المختلفة داخل الأنماط المختلفة للمجتمعات كى يتخطوا حياتهم اليومية من خلال العقل والخبرة ، ولكى يسلكوا فى ضوء بناء مجتمعهم . والفترة التى يعيشونها من خلال درجة القوة التى يتملكونها . فمن السهل على الباحث ان يكتشف أن بعض الأفراد فى المجتمعات الحديثة يمتلكون من القوة ، ما يجعل لسلوكهم معنى بنائيا وما يجعلهم على وعى بنتائج أعمالهم ، وأن البعض الآخر يمتلك هذه القوة ولكنهم ليسوا على وعى بمجال تأثيرها ، وأن هناك الكثيرين ممن لايستطيعون أن يتجاوزوا حياتهم اليومية من خلال وعيهم بالبناء أو تغيير هذا البناء من خلال وسائل الفعل المتاحة لهم (٤٩) .

فالباحثون فى العلوم الاجتماعية على وعى بتكوين البناء الاجتماعى وبالميكانيزمات التاريخية لحركته ، غير انهم لايملكون وسائل القوة التى يمكن ان تمارس تأثيرا على هذه الميكانيزمات التاريخية . ومن ثم فانه يجب عليهم أن يضفوا على أعمالهم معنى سياسيا ، فهذا المعنى السياسى يمنح اعمالهم قدرا — وان يكن هشا — من القوة التى قد تسهم على المدى البعيد

---

(٤٩) Ibid., pp. 164—185

فى تغيير البناء الاجتماعى ، وهو الهدف النهائى لالتزام الباحثين . ولكن كيف يضفى الباحث على عمله معنى سياسيا اذا ماوجه هذا العمل اساسا الى الأنماط المختلفة من البشر الذين يختلفون فى درجة القوة التى يمتلكونها او درجة المعرفة التى يحصلون عليها ؟ يذهب ميلز الى ان الباحث يوجه عمله الى ثلاثة انماط من البشر (٥٠) .

١ ــ هؤلاء الذين يملكون القوة على وعى بها . ويفرض عليهم الباحث مستويات متعددة من المسئولية ، لأنه يجد أن البناء الاجتماعى يتأثر تأثرا كبيرا بقراراتهم أو عدم وجود هذه القرارات .

٢ ــ هؤلاء الذين يكون لأفعالهم نتائج تشبه افعال النمط الأول ، ولكنهم على غير وعى بذلك . انه يوضح لهم هذه النتائج ، وأن يعلمها لهم بحيث يفرض عليهم قدرا من المسئولية .

٣ ــ هؤلاء الذين لايملكون القوة ، والذين يرتبط وعيهم بحياتهم اليومية ، انه يكشف لهم من خلال عمله معنى الاتجاهات والقرارات البنائية بالنسبة لحياتهم اليومية ، والطريقة التى ترتبط من خلالها المشكلات الخاصة بالمشكلات العامة ، وكذلك النتائج التى توصل اليها بشأن القابضين على زمام القوة فى المجتمع « فأول خطوة على طريق اعادة الوعى للقاعدة الجماهيرية ، هى جعل مفهوم البناء الاجتماعى فى متناول ادراك المواطن المتوسط العادى » (٥١) .

والفرصة مهيأة أمام الباحث فى علم الاجتماع لكى ينجز هذا الدور ، فهو عادة يعمل كأستاذ ، وهذه الحقيقة المهنية تحدد بدقة مايستطيع هذا

---

(٥٠) Ibid., p. 185

(٥١) آمال حسن السواح ، النظرية السوسيولوجية عند تشارلز رايت ميلز ، رسالة ماجستير غير منشورة ــ كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٦٧

الباحث أن يفعله . فهو — كأستاذ — يوجه فكره الى التلاميذ ، ويوجهه فى أحيان كثيرة من خلال الكتابات والأحاديث — الى جمهور أعرض ذى وضع أكثر استراتيجية . وما دام هذا الباحث يهتم بالتربية الليبرالية فان دوره العام لابد أن يتجه الى تحقيق هدفين : بالنسبة للفرد عليه أن يحول المشكلات الخاصة والاهتمامات الشخصية الى مسائل عامة ومشكلات يمكن اخضاعها لجدل العقل . انه هنا يساعد الفرد على أن يعلم نفسه بنفسه ،ويصبح شخصا عاقلا ومتحررا .وبالنسبة للمجتمع عليه أن يقاوم كل هذه القوى التى تعمل على تحطيم الجماهير الخلاقة ، واقامة المجتمع الجماهيرى . فلا بد أن يكون الهدف النهائى لأى تربية ليبرالية هو « خلق الرجل والمرأة الذى يعلم نفسه بنفسه ويثبت نفسه بنفسه — باختصار خلق الفرد الحر الرشيد » (٥٢) . أن الباحث فى هذه الحالة يتصرف بطريقة ديمقراطية فى مجتمع لا ديمقراطى — انه يتصرف كما لو كان يعيش فى مجتمع ديمقراطى ، من أجل تحقيق مزيد من الديمقراطية . وليس هناك من وسيلة لذلك الا من خلال هذا الدور المنوط بالباحث السوسيولوجى ، فمشكلة العلوم الانسانية كمسئول أول عن دور العقل فى الشئون الانسانية ، هى المشكلة الأساسية للديمقراطية فى العصر الحديث » (٥٣) .

ولكن ما هى امكانية نجاح الباحث فى تحقيق هذا الهدف ؟ لا يعتقد ميلز أن العلوم الاجتماعية سوف تنقذ العالم بالرغم من انه لايرى أى غضاضة فى القول بامكانية انقاذ العالم عن طريق تجنب الحرب واعادة تنظيم شئون البشر طبقا لمبادىء الحرية والعقل . فاذا كانت هناك بعض الطرق للخروج من أزمات العصر عن طريق العقل ، فان العالم الاجتماعى لايقرر هذه الطرق، وان كان ما يمثله العالم هو أنه انسان يحس ويعى بالانسانية . « فعلى مستوى الوعى الانسانى تقع كل الحلول الممكنة لكل المشكلات الكبرى فى

---

(٥٢) Mills, Sociological Imagination, op. cit., p. 187

(٥٣) Ibid., pp. 189—190

عصرنا الحاضر » (٥٤) . ولم يكتف ميلز بأن حدد للباحث الدور الذى يجب أن يؤديه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، والأهداف التى يبغيها من وراء انجازه لهذا الدور ، والقيم التى يلتزم بها ، بل ذهب الى ابعد من ذلك حين حدد فى ملحق ختامى فى كتابه « الخيال السوسيولوجى » الأسلوب الذى يجب ان يتبعه الباحث الملتزم فى اجراء بحوثه وتنفيذهـــا واخراجها فى صورتهـــا النهائية (٥٥) . ويقوم ذلك الأسلوب على قضية اساسية مؤداها ان الباحث لايجب ان يفصل عمله عن حياته ، وان يستخدم كلا منهما فى اثراء الآخر ، وان يكيف حياته مع عمله من اجل تحقيق قدر من الاكتمال لحرفته « (٥٦) . ويشعر ميلز بالامتعاض تجاه مايحدث من توجيه البحـــوث نحو اغراض خاصة ، او اجرائها من أجل الحصول على النقود ، او كتابة خطتها وفق أهواء معينة ، وذلك أمر طبيعى بالنسبة لعالم يلتزم بقيم الحرية والعقل ، ويوجه بحوثه نحو خدمة اغراض انسانية فى المحل الأول . لذلك فانه يحدد للباحثين مجموعة من الخطوط العريضة فى انجاز البحوث تجنبهم هذا الانحراف السيىء للعلم فالباحث يجب :

١ — أن يصبح رجل مهنة نظيفـــا : بأن يتجنب اى اجراءات جامدة ، وان يطور ويستخدم الجدل السوسيولوجى اولا وقبل كل شىء .

---

(٥٤) Ibid., p .193

(٥٥) كتب ميلز هذا الملحق بعنوان « حول الحرفية الفكرية on Intellectual craftsmanship انظر الخيال السوسيولوجى ،مرجـــع ســـابق ، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٥٦) يحشد ميلز فى هذا الملحق خلاصة خبرته ويقدمها للباحثين ، فينصحهم بتدوين مذكرات ، ويعلمهم طريقة اعداد خطة البحث وضرورة مناقشتها مع الأصـــدقاء والمتخصصين كما يعلمهم طريقـــة الاقتبـــاس من الكتب والتعليق عليه . ويقدم كل ذلك فى اطار الفكرة الأساسية التى يطرحها فى هذا الملحق والتى مؤداها أن هناك اتصالا وثيقا بين العمـــل الحرفى وبين الحيـــاة اليومية .

٣ ــ أن يتجنب الجدل البيزنطى حول المفاهيم ، وأن يحاول قدر استطاعته أن يكون واضح العبارة ، وأن يستخدم مصطلحات منقحة ، فهى خير دليل على اتساع افقه وعلى حساسيته بالمشكلات .

٣ ــ أن يكون اى ابنية تاريخية مقارنة يعتقد أن عمله فى حاجة اليها ، وأن يربط بينها وبين الحقائق المجردة ، وأن يدعم حديثه بأمثلة قوية .

٤ ــ الا يدرس وسطا صغيرا تلو الآخر ، بل يجب أن يدرس الأبنية الاجتماعية التى تنظم هذا الوسط ، وأن يحاول ايجاد العلاقات التى تربط بينها

٥ ــ أن يتذكر أن هدفه هو الفهم للأبنية الاجتماعية : الأبنية السابقة والابنية القائمة بالفعل داخل المجتمع .

٦ ــ أن يضع نصب عينيه صورة الانسان ، او فكرة أساسية عن طبيعته البشرية ، فهى المهدى النهائى لكل دراسة ، وكذلك صورة التاريخ ــ كيف يصنع ــ لما له من تأثير على الانسان .

٧ ــ الا ينعزل عن تراث الفكر السوسيولوجى ، وهو لايستطيع أن يفعل ذلك مادام يحاول فهم الانسان كفاعل تاريخى واجتماعى فى ذات الوقت.

٨ ــ الا يفهم المشكلات (المسائل) العامة بالطريقة الرسمية التى تصاغ بها ، والا يفهم المشكلات الخاصة بالطريقة التى يفهمها بها الأفراد ، أو يترك ذلك يؤثر على اختياره لمشكلات بحثه .

وبعد هذا العرض لتصور ميلز لدور عالم الاجتماع الملتزم نتساءل . ماهو الجديد الذى اضافه ميلز عن دور عالم الاجتماع ؟ وما مدى التزامه نفسه بهذا الدور ؟ الحقق أن تصور ميلز لدور عالم الاجتماع يكشف ــ كما نوهت فى بداية هذه الفقرة ــ عن راديكالية على المستوى النظرى (الراديكالية السوسيولوجية) وعلى المستوى الاجتماعى (الراديكالية الاجتماعية) . فعلى المستوى السوسيولوجى نحس طيلة قراءتنا لما كتبه ميلز عن دور عالم الاجتماع ، نحس مقته الشديد للدور الذى يقوم به عالم الاجتماع بالفعل فى

المجتمع الراسمالى ، فقد رفض دور العالم كمنظر او فيلسوف للحـــاكم ، ورفض دوره كمستشار للدولة ، وطالب أن يستقل العالم ولا يلتزم بأى شيء الا بقيم العقل والحرية والبحث عن الحقيقة ، كما رفض أسلوب هؤلاء العلماء فى اجراء البحوث واختيارهم لمشكلات بحوثهم حيث يعتبرون الحصول على النقود المحك الأساسى فى اختيار مشكلات الدراسة . وهذا هو الذى دعاه الى تناول موضوع اجراء البحوث كمهنة للباحث . وربما كان اهم شيء جاء به ميلز عندما عالج هذا الموضوع أنه وضع أساس ما سماه جولدنر فيما بعد بسوسيولوجيا علم الاجتماع (٥٧) على اختلاف منطلقات كل منها . فقد راى ميلز أمام فيض من البحوث والنظريات الموجهة لخدمة الحياة العامة ، ضرورة الفصل بين الحياة العامة بما فيها من مضامين ايديولوجية واحكام قيمية ، وبين الحياة الخاصة بعالم الاجتماع الذى لابد أن ينفصل عن أى تأثيرات قد تمارسها عليه الحياة العامة . وهذا هو مـــا قرره جولدنر بعد ميلز بأكثر من عقد من الزمان ـــ حين ذهب الى ضرورة الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة لعالم الاجتماع . بل ان ميلز حاول ان يضع الفرصة امام الباحث ليستفيد من حياته الخاصة عندما قرر ضرورة أن تشكل المهنة هذه الحياة لا أن تشكل هذه الحياة المهنة ، واحتفاظ الباحث بمذكرات يدون فيها ملاحظاته ثم مناقشة هذه الملاحظـــات والخطط مـــع زملائه واصـــدقائه هو السبيل الى ذلك . أن ذلك يحفظ الحياة الداخلية للباحث فى حالة يقظة مستمرة على ما يقول ميلز (٥٨) .

---

(٥٧) قدم جولدنر هذه الفكرة فى فصله الأخير من كتابه : الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ، السابق الاشارة اليه . ولم ينوه جولدنر الى تأثره بميلز . رغم ان فكرة ميلز تعد أكثر رحابة وأصالة . وسوف نتعرض بالتفصيل لآراء جولدنر فى الفصل القادم من هذا البحث .

(٥٨) Mills, Sociological Imnagination, op. cit., p. 197

ويؤكد هذا الادعاء ـــ الذى توصلنا اليه مستقلين ـــ ماذهب اليه كولين فلتشر من ان فكرة سوسيولوجيا علم الاجتماع عند جولدنر تتفق مع فكرة الخيال الذاتى عند رايت ميلز . ذلك أن النقد الاجتماعى عنده يجب ـــ

الى جانب ذلك فان تصور ميلز لدور عالم الاجتماع يكشف عن راديكالية اجتماعية ، بمعنى ثورة الباحث على كل بناء جائر ، ومحاولته تغيير اى بناء يهدم كرامة الفرد وحريته . ان عالم الاجتماع — خلال الالتزام العلمى بقيم الحرية والعقل — يعيش فى قلب الواقع ، لا من اجل دراسته فقط والتعرف على ما به من مشكلات عامة ، بل من اجل أن يساعد الانسان العادى على تجاوز الواقع المحدود الذى يعيش فيه ليجد تفسيرا لمشكلاته فى اساس البناء الاجتماعى ذاته . وطبيعى أن يكتسب الفرد الذى يصل الى هذا الحد مقومات الثورة على هذا البناء ويسعى الى تغييره . وهنا يتضح تأثر ميلز بروح اليسار الجديد حيث يؤمن الراديكاليون من اليسار الجديد ايمانا مطلقا بالفعل دون الدخول فى متاهات ايديولوجية ، تماما مثلما يفرض ميلز هنا على الباحث فى علم الاجتماع دورا اساسيا يهدف فى النهاية الى تغيير الواقع . فضلا عن ذلك فان تصور ميلز لدور عالم الاجتماع فى المجتمع الحديث يكشف عن أن علم الاجتماع — فى نظره — علم انسانى بالدرجة الاولى لايهدف للوصول الى القوانين والنظريات العامة ، وانما يهدف الى فهم الانسان فى المجتمع الحديث ، بكل ما يحيط بهذا الانسان من استغلال وسيطرة ، ومن اجل أن يفهم هذا الانسان نفسه مظاهر الظلم المحيط به كى يسعى الى تغييرها . ولقد اكد ميلز هذه النظرية الانسانية لعلم الاجتماع حينما ذهب الى ان علم الاجتماع هو جمع للاحصاء والحقيقة والنزعة الانسانية (٥٩) .

ولقد قام ميلز بدور العالم الملتزم حينما وجه كل بحوثه لنقد المجتمع الأمريكى وتوضيح الطريقة التى ترتبط من خلالها مشكلات المواطن العادى

= أن يمتد من نقد ذات الباحث نفسه لأعماله الى تغيير العالم المحيط به ، وما قد يأتى به مستقبل هذا العالم . انظر كتاب كولين فلتشر السابق الاشارة اليه ص ١٨٠

(٥٩) W. Mills, «I.B.M. plus Reality plus Humanism Sociology» in : Power, Politics and People, op. cit., pp. 569—576

بمشكلات البناء الاجتماعى ، وكيف يعمل تركيز السلطة فى ايدى جماعة الاقتصاديين والسياسيين والعسكريين على قهر الانسان فى المجتمع الراسمالى على ما سنرى بالتفصيل فى الفقرة القادمة .

رابعا : رايت ميلز رائد النقد الاجتماعى :

فى هذه الفقرة سوف أحاول الكشف عن مدى التزام ميلز بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع ، ولكنى من خلال ذلك أحاول أن أوضح أن اعمال ميلز الملتزمة قد جعلته رائدا لمنهج جـديد من مناهج علم الاجتماع وهو المنهج النقدى . ان هذه الفقرة سوف تقدم لنا اجابات على اسئلة عديدة ثارت خلال العرض السابق : كيف نظر ميلز الى البناء الاجتماعى فى عصره ؟ كيف عاش ظروف هذا البناء ؟ كيف حاول أن يكشف عن مظاهر السيطرة الكامنة وراء النظام السياسى الاقتصادى العسكرى المتحكم فى هذا البناء ؟ والاجابة على هذه الأسئلة سوف توضح كيف كان ميلز عالما ملتزما بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع ، وبالقيم التى لابد أن يلتزم بها الباحث . غير أن هذا الالتزام قد جعله رائدا لمنهج النقد الاجتماعى ، فقد انبرى فى كل دراسته لتعرية البناء الاجتماعى فى الولايات المتحدة ، واهتم أساسا بموضوع القوة : طبيعتها ، توزيعها ، استخدامها او اساس استخدامها ، ورجل القوة ، وقوة التنظيمات ، وخرافات القوة ، وتطور القوة ، والقوة غير الرشيدة ، وأساليب ملاحظة القوة ، وفهمها على مسرح المجتمع الحديث (٦٠) من وخلال ذلك استطاع أن يوضح أساليب القوة فى السيطرة على الأفراد فى المجتمع الحديث .

فى عام ١٩٦٧ كتب بوتومور يقول « بدأت فى الخمسينات عملية احياء للثقة بالنفس وبالفكر النقدى ، ليس بين الفلاسفة والمؤرخين ولكن بين المتخصصين فى العلوم الاجتماعية ، خاصة علم الاجتماع . وكان تشارلز رايت ميلز معلما اساسيا من معالم هذه الحركة . وكان هدفه الرئيسى كما ذكر ذات مرة ، ان يحيى التراث الأوروبى الكلاسيكى من الفكر السوسيولوجى ،

---

(٦٠) P. Cuzzort, **Humanityand Modern Sociological Thought** Holt Rinehart and Winstn, New Yrk, 1969, p. 134

والذى ابدعه ماكس فيبر وماركس فى المحل الأول ، والذى يعالج المشكلات التاريخية والاجتماعية العامة » (٦١) ولقد كتب بوتومور ذلك وهو بصدد تأريخه لحركة النقد الاجتماعى ، وتحولها من الأدباء والفلاسفة الى علماء الاجتماع،ولاشك أن هذا النص يوضح انه لم يأت قبل ميلز من علماء الاجتماع من وجه اهتماما رئيسيا لنقد المجتمع ، وأن فترة الخمسينات التى شهدت التحول فى الاهتمام بالنقد الاجتماعى من الأدباء والفلاسفة الى علماء العلوم الاجتماعية قد شهدت ظهور أعمال ميلز التى جعلته بحق أول رائد للنقد الاجتماعى . فضلا عن ذلك فان أسلوبه فى النقد الاجتماعى والذى ينحصر فى عملية تحويل المشكلات الخاصة الى مشكلات عامة ومساعدة الفرد على تجاوز الوسط اليومى الذى يعيش فيه الى استيعاب مكونات البناء الاجتماعى — مايزال الأسلوب الرئيسى فى النقد الاجتماعى حتى وقتنا هذا . ولقد حاول كولين فلتشر C. Fletcher فى مؤلف حديث أن يضيف منهجا جديدا الى المناهج القائمة فى علم الاجتماع — وهى المنهج الكمى والمنهج الكيفى — فكتب عما سماه بمنهج النقد الاجتماعى . وتكشف عبارته عن ان هذا المنهج يقوم على الأفكار والاعمال التى قدمها رايت ميلز فى الخمسينات » « .. فالناقد الاجتماعى يكون عادة اشتراكيا ، وعالما انسانيا والنقد الاجتماعى هو عمل على درجة من المسئولية الواضحة . فكل ناقد يكون على وعى عميق بأنه مدين للذين سبقوه ، كما يكون على وعى بكل الفضائل التى تجعل الحياة جديرة بأن تعاش .. انه يقدم صيحة الى الأفراد بأن يميزوا بين الغث والثمين » (٦٢) . ويضيف فى مكان آخر : « .. يتطلب النقد كاتبا لديه القدرة على ان يستجيب لمشكلات اليوم لأنها سوف تتحكم فيما هو آت فى الغد . انه يصبح الى حد ما ابنا للعصر الذى يعيش فيه. ومشكلته تنحصر فى انه لابد ان يغطى حقبة بأكملها ، انه يكشف الحقيقة ،

---

(٦١) Bottomore, critics of .. op. cit.,

(٦٢) Colin Fletcher, Beneath the Surface, op. cit., p. 174

وان يجعل المشكلة الخاصة مشكلته العامة » (٦٣) . وهذا هو مافعله ميلز بالضبط . لقد كان اشتراكيا ، وملتزما يعتبر نفسه مسئولا عن انجاز دور معين ، وعلم الاجتماع عنده علم انسانى فى المحل الأول ولقد عاش ظروف عصره ، وآمن بمبدأ الخصوصية التاريخية ، واخيرا كان اسلوبه الرئيسى فى النقد أن يحول المشكلة الخاصة الى مشكلة عامة على مارأينا . وبذلك يكون قد وضع الأساس لمنهج النقد الاجتماعى . وقد نقتنع بذلك أكثر لو استعرضنا على عجل بعض أعماله الرئيسية .

فى عام ١٩٤٨ قدم ميلز كتابا بعنوان « أولى القوة الجدد : قادة العمال فى أمريكا » (٦٤) عالج ميلز فيه تطور الطبقة العاملة الأمريكية ، ودرس الظروف التى جعلت قادة العمال فى النقابات العمالية الأمريكية يتطلعون الى مكان فى الصفوة القومية بدلا من أن يوجهوا جهودهم لنقد النسق الاجتماعى والاقتصادى للرأسمالية الأمريكية (٦٥) . ولقد نجح ميلز فى ان يوضح التغيير والتحول الذى طرأ على الطبقة العاملة ، وكيف انها لم تعد تمتلك امكانيات الثورة بالمفهوم الماركسى . لقد نجح المجتمع الرأسمالى فى أن يستدرج هذه الطبقة داخل نظمه ، وأن يخلق لها من التنظيمات ما أفقدها القدرة على الثورة . وأخذ قادة هذه الطبقة يتخلون عن مهمتهم التاريخية فى تغيير المجتمع ، ويسعون الى أن يصبحوا اعضاء فى صفوة القوة الحاكمة فى المجتمع ، بحيث يمكن ان نفهم بناء الولايات المتحدة من خلال فهمنا لما يفعله قادة العمال » . فاذا كان مانفعله الولايات المتحدة أو تفشل فى فعله يمكن أن يكون المفتاح لفهم مايحدث فى العالم . فان ما يفعله قائد العمال أو يفشل فى فعله يمكن أن يكون المفتاح لفهم مايحدث فى الولايات المتحدة » (٦٦) وربما كان هذا السعى الدائب من جانب العمال نحو تحسين أوضاعهم

---

(٦٣) Ibid., p. 189

(٦٤) W. Mills, The New Men of Power : America's Labour Leaders

(٦٥) Bottomore Critics of Society, op. cit., p. 54

(٦٦) نقلا عن : J. Rex, Discovering Sociology, op. cit., p. 181

الاقتصادية والسياسية هو الذى جعل ميلز يتخلى عن فكرة « الدور التاريخى للعمال » كما جاء فى التراث الماركسى ، ويعارض من تبناها من أنصار اليسار الجديد ، ويركز على دور المثقفين كبديل لطبقة العمال فى احداث التغيير فى المجتمع الرأسمالى على ما رأينا فى مكان سابق « ان ما أفهمه عن بعض كتاب اليسار الجديد هو لماذا يتعلقون تعلقا شديدا بالطبقة العاملة فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة على أنها الأداة التاريخية ، أو أهم الأدوات جميعا ، فى التصدى للواقع التاريخى الملح الذى يختلف عما يتوقع هؤلاء اليساريون . ان تلك الميتافيزيقيا العمالية هى حجة من الماركسية فى العصر الفيكتورى والتى تعتبر الآن غير واقعية تماما » .

وفى عام ١٩٥١ أصدر ميلز كتابه الشهير عن « ذوى الياقات البيضاء »(٦٧) وهو يمثل دراسة مستفيضة للطبقة الوسطى فى المجتمع الأمريكى . ولقد استطاع ميلز أن يرصد التغير الذى طرأ على الطبقة الوسطى القديمة والتى كانت تتكون من المنتجين ، والتجار ، وأصحاب المهن المتخصصة ، حيث تحولت الى ما أسماهم ميلز « بذوى الياقات البيضاء » . White Coller من الموظفين والفنيين ، وأصحاب المهن المتخصصة . كما استطاع أن يكشف عن التغير الذى طرأ على الظروف التى تعيش فيها هذه الطبقة . فالايديولوجية السائدة والتى تركز على الاستقلال والفردية ، والاحتكار تفرض على هذه الطبقة — التى لاتعدو أن تكون مجموعة من الموظفين الأجراء — ضربا من ضروب التعمية أو التجهيل mystification بحيث فقدت الأمن والترابط الذى كان يميز الطبقة الوسطى القديمة فلم يعد لها جذور محددة ، أو انتماءات مؤكدة تحافظ بها على حياتها ، واخذ الاغتراب يضرب بجذوره فى أعماقها ، وسلبها عدم وجود نسق معين من المعتقدات أى قدرة للدفاع عن نفسها ، وجعلها عاجزة من الناحية السياسية.

ولكن ماهى مظاهر هذا القلق والاغتراب الذى تعيشه هذه الطبقة

---

(٦٧) W. Mills, **White Cller : The American Middle Classes,** Oxford Uni. Press, N.Y. 1951

وما هى اسبابه . أن نموذج المجتمع الراسمالى بما يفرضه من نظم انتاج . وما يتحكم فيه من قوة سياسية واقتصادية وعسكرية يفرض على الفرد داخل المجتمع نوعا من الحياة يتلقى فيه مايحتاجه وما يفكر فيه من اعلى دون اى مشاركة فعالة فى صنع حياته . لقد اضحى هذا المجتمع نموذجا مسيطرا manupolative تحولت فيـــه اساليب الضبط والقهر من الأساليب الصريحة الواضحة الى الأساليب غير المباشرة بحيث اصبح الفرد مجرد آلة يمكن تحريكها فى اى اتجاه فى سهولة ويسر . ولقد استطاع ميلز — بذكاء — ان يكشف عن تناقضات الحياة داخل هذا المجتمع الراسمالى يمكن أن نشير الى بعضها على عجالة : (٦٨)

١ — يعيش الفرد داخل هذا المجتمع الصناعى غير مكترث بما يدور حوله بحيث اصبح يمر بالأحداث الجسام ، وصور الجريمة دون ان تستوقفه . لقد اصبحت الحياة بمثابة شريط سينمائى يشاهده الفرد ولا يشارك فيه ، أو ان هناك حاجزا من اللامبالاة يمنع الفرد من الانفعال بمشاكل العصر .

٢ — يعيش الفرد فى حالة اغتراب داخل العمل ، تفرضه عليه علاقات العمل الراسمالية . ان هذه العلاقات تفرض على الفرد نوعا من التخصص الدقيق الذى يعمل مع وجود الضبط والرقابة المتصلة ، واسلوب التسلسل الرئاسى المتعدد ، على أن يعيش هذه الحالة من الاغتراب عن نتاج عمله ومجتمعه . وهكذا تحدث أساليب الانتاج تغيرا كبيرا فى « طبيعة » الانسان ، وفى ظروف واهداف حياته .

٣ — يترتب على ظروف العمل الصعبة ان يسلم الفرد نفسه بعد عودته من عمله الى وسائل الاعلام والترفيه ، التى تتنافس فى أن تنقل اليه اخبار العالم ، وتحشد ذهنه بما يريده صناع السياسة فوسائل الاعلام فى المجتمع الراسمالى غالبا ماتكون موالية لمراكز السلطة . وهكذا

---

(٦٨) آمال حسن السواح ، النظريـــة السوسيولوجية عند تشارلز رايت ميلز ، مرجع سابق .

تزداد عنده حالة الاغتراب ، ويحجم على أى مشـــاركة فى الحيـــاة السياسية ، أو أية مناقشة جادة للأبعاد الحقيقية للمشكلات الاجتماعية .

٤ ــ يساهم فى هذه اللامبالاة وذلك الاغتراب نسق القوة السائدة فى المجتمع الرأسمالى ، وهو نسق يعتمد على أساليب جديدة غير معلنة للقهر السياسى . انه ومن خلال أساليب الاعلام والترفيه ، ونظم الانتاج ، يتحكم فى الأفراد بطريقة خفية ، ويحركهم حسب أهوائه دون أن يعرف الأفراد من هو المسئول الحقيقى عن كل مايجد فى حياتهم من مشكلات .

٥ ــ ترتب على هذا كله أن ضاقت الفرصة أمام الفرد لأن يصبح انسانا حرا ، كما تدهور العقل فى التحكم فى مسار الحياة اليومية . فنظـــام العمل فى المجتمع الرأسمالى الذى يقوم على الترشيد والأداة ، وأسلوب الانتاج الكبير الذى يقدم للفرد حلولا فورية لمختلف المشكلات قد قللا من قدرة الفرد على اتخاذ القرارات ، وعلى اعمال فكره فيما يدور حوله من أحداث .

ويكشف هذا العرض لتحليل ميلز لنشأة الطبقة الوسطى والظروف التى يعيشها عن قدرته البارعة على التحليل والنقد الاجتماعى . انه هنا يهتم بمشكلات المواطن العادى التى تواجهه فى حياته اليومية ، ولكنه يربطها بمشكلات بنائية عامة (نسق القوة ، أساليب الانتاج ــ علاقات العمل ــ اجهزة الاعلام) ، وهذا الأساس الذى وضعه للنقد الاجتماعى النابع من الخيال السوسيولوجى .

ولقد تعمق ميلز كثيرا فى مشكلات البناء الاجتماعى عندما كرس جهده لدراسة الطبقة الثالثة (الحاكمة) فى الولايات المتحدة . ففى عام ١٩٥٦ أصدر كتابه الشهير « صفوة القوة » (٦٩) Power Elite يحلل فيه نسق القوة فى المجتمع الأمريكى . ويعرف ميلز صفوة القوة من خلال تملك افرادها

---

(٦٩) W. Mills, **The Power Elite**, Oxford Uni. Press, N.Y. 1959

للثروة والقوة والمكانة ، وسيطرتهم داخل الهيئات النظامية الكبرى فى الاقتصاد والسياسة والجيش . انهم أولئك القادرون على أن يحققوا رغباتهم ، حتى لو عارضهم الآخرون . وتضم هذه الصفوة فئات عديدة أهمها : ذوو الثراء العريض The Very Rich الذين ظهروا فى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية « ففى الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ أعطت حوالى ١٧٥ بليون دولار مستحقة من عقود العرض — وهى أساس ضبط وسائل الانتاج فى الأمة بأسرها — الى شركات خاصة . « وذهب حوالى ثلثى هذا المبلغ الى مائة شركة فى القمة كما ذهب الثلث الباقى الى عشر شركات خاصة ، وتكون هذه الشركات الفقود من خلال بيع منتجاتها للحكومة » (٧٠) وهكذا تكونت فئة ذوى الثراء العريض من خلال القفزة الكبرى وتراكم الامتيازات ، وأصبحت تسيطر سيطرة كاملة على عالم الشركات الكبرى ، أما الفئة الأخرى وهى فئة العسكريين . وقد تكونت ايضا بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن خلال سباق التسلح فى الحرب الباردة . « فمنذ بيرل هاربر حقق هؤلاء الذين يتحكمون فى وسائل الشغل فى الولايات المتحدة استقلالا ملحوظا ، كما اصبح لهم تأثير كبير على زملائهم من السياسيين والاقتصاديين . ولقد تخطى بعض الضباط أدوارهم العسكرية ليؤثروا على مستويات أعلى فى الحياة الأمريكية ؛ ومارس البعض الآخر ممن ظلوا عسكريين تأثيرا على قرارات أولى القوة من الساسة والاقتصاديين وذلك من خلال تقديم النصح أو المعلومات أو الأحكام اللازمة . كما مارسوا هذا التأثير على الأوساط العلمية والتربوية »(٧١) وبذلك انضمت فئة العسكريين الى صفوة القوة وربطت مصالحها بها . وقد ساعد على

---

(٧٠) Ibid., pp. 100—101.

(٧١) Ibid., p. 198

وتجدر الاشارة الى ان تأثير الأوساط العسكرية على الأوساط العلمية قد امتد الى تحويل البحوث العلمية التى تخدم اغراضا عسكرية . وربما كان مشروع كاملتون السابق الاشارة اليه من أهم الأمثلة على ذلك .

ذلك السباق فى الحرب الباردة ، حيث يرغب العسكريون فى أن تنفذ برامج التسليح التى يضعونها ، ويرحب بها أصحاب الشركات لأنهم يجنون من ورائها الأرباح الطائلة . أما الفئة الثالثة فى صفوة القوة فهى فئة الساسة التى تتحكم فى وضع القرارات السياسية الهامة فى المجتمع . وهى تتكون من جماعة صغيرة يتحملون مسئولية القرارات التنفيذية التى تتخذ باسم الولايات المتحدة ، وهى تضم رئيس الجمهورية ، ونائبه ، وأعضاء مجلس الوزراء ، وكذلك رؤساء الهيئات واللجان والأجهزة الرئيسية ، وأعضاء المكتب التنفيذى للرئيس بما فيه هيئة البيت الأبيض » (٧٢) .

وهذه الفئة لاتعيش منعزلة عن الفئتين الاخريين ، بل تكون معهما « صفوة القوة » فى الولايات المتحدة ، تجمعها مصالح واحدة ، ويمارس فيها العسكريون وأصحاب الشركات تأثيرا كبيرا على صناع القرار أو صناع السياسة بحيث اصبحت الحكومة تراعى الى حد كبير توازن المصالح بين جماعة العسكريين ، وجماعة أصحاب رؤوس الأموال وذلك كله من اجل أن تحافظ هذه الصفوة على مركزها وعلى تملكها زمام القوة فى الولايات المتحدة .

هكذا استطاع ميلز بكتابه « صفوة القوة » أن يرتفع بالتحليل الذى بدأه فى كتبه السابقة الى مستوى أعلى يمس جوهر البناء الاجتماعى ككل . فاذا كان قد أفاض فى كتابه « ذوى الياقات البيضاء » فى توضيح هموم المواطنين النفسية والاجتماعية ، وأرجعها الى بعض المشكلات العامة التى تضرب بجذورها فى البناء الاجتماعى برمته ، فانه هنا يحصر هذه المشكلات العامة فى مشكلة كبرى واحدة هى انقسام المجتمع الى صفوة حاكمة تمارس أساليب جديدة من القهر والاستغلال ، وجماهير مغلوبة تتلقى جاهزا كل ما يوجه حياتها من هذه الصفوة . والحقيقة أن ميلز كان يلقى على هذه الصفوة تبعات كل المشاكل التى يعانى منها المواطن الأمريكى أو حتى اى مواطن فى العالم . يؤكد ذلك ماذهب اليه فى كتابه عن « أسباب الحرب

---

(٧٢) Ibid, p. 231

العالمية الثالثة » (٧٣) من أن الانخراط فى الحرب النووية — بمعنى تدمير العالم — يعتمد على قرار جماعة صغيرة من الناس لايمارس الشعب عليها اى رقابة .

ولم يقتصر نقد ميلز للمجتمع الرأسمالى على هذه الكتب فقط وانما كرس جهدا كبيرا فى مجموعة كبيرة من المقالات يضيق المكان هنا عن عرضها ، وعلى اى حال فان هذا العرض لأعماله الرئيسية يكشف لنا عن حقيقتين :

الأولى : ان ميلز قد التزم التزاما كبيرا بالدور الذى حدده لعالم الاجتماع فلا تكشف اى من دراسته عن ارتباط بالسلطة او سعى نحوها ، بل انها وجهت لنقد اسلوب السيطرة والاستغلال الذى تمارسه هذه السلطة ، فالقيم التى يلتزم بها ميلز هى فقط قيم الحرية والعقل والبحث عن الحقيقة .

والثانية : ان ميلز قد وضع بذلك اساس منهج جديد فى العلوم الاجتماعية هو منهج النقد الاجتماعى ، بل انه ربط بين نقد الواقع ونقد النظرية التى تفسر ذلك الواقع . ومن هنا لايعد ميلز رائدا للنقد الاجتماعى فقط ، وانما رائدا لكل الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع سواء اتجهت نحو نقد الواقع أو نحو نقد النظرية . وسوف نرى فى الفصول القادمة مدى التأثير الذى مارسه رايت ميلز على الاتجاهات النقدية التى جاءت بعده . فقد سارت هذه الاتجاهات فى نفس خطى النقد اللذين طورهما رايت ميلز ، والاختلاف بين هذه الاتجاهات واتجاه ميلز يكمن فى أن اى من هذه الاتجاهات لم يستطع أن يربط بين النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى بنفس طريقة رايت ميلز . لقد مارس رايت ميلز تأثيرا كبيرا على كل الاتجاهات النقدية بعده . حقيقة ان هناك الكثير من الصراعات البنائية والفكرية التى أذكت هذه الاتجاهات ، ولكن هذه الاتجاهات لم يكن أمامها الا أن تكمل الطريق الذى بداه ميلز على ما سنرى فى الفصول القادمة .

---

(٧٣) W. Mills, The Causes of the Third World War, Simon and Schuster, New York, 1958.